

# تَفْسِيرُ الْمَرْأِغِيِّ

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي  
أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية  
بكلية دارالعلوم سابقاً

---

المجلد الثاني عشر

---

الطبعة الأولى

١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م

---

حقوق الطبع محفوظة

## الجزء الثاني عشر

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا  
وَمُسْتَوْدَعَهَا ، كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ  
عَمَلًا ، وَلَئِنْ قُلْتِ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا  
إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ  
لَيَقُولَنَّ مَا يَجِدِسُهُ إِلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا  
بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٨)

### تفسير المفردات

الدابة: اسم لكل نَسَمَةٍ حية تدبُّ على الأرض زَحْفًا، أو على قوائم ثنتين فأكثر،  
وغلب عرفا على ما يُركَّب من الخيل والبغال والحمير ، والدبُّ والدبيب : الانتقال  
الخفيف البطيء كدبيب الطفل والشيخ المسنَّ والعقرب والمستقر : مكان الاستقرار

من الأرض ، والمستودع : حيث كان مودعا قبل الاستقرار فى صلب أو رحم أو بيضة ،  
والعرش : مركز نظام الملك ومصدر التدبير ، والبلاء : الاختبار والامتحان ، والآمة :  
الطائفة أو المدة من الزمن كما قال تعالى : « وَادَّكَّرَ بَعْدَ آئَةٍ » وأصلها الجماعة من  
نوع واحد أو دين واحد أو زمن واحد ، مصروفا عنهم : أى مدفوعا ومحجوسا ، وحق :  
نزل وأحاط .

### المعنى الجملى

بعد أن بين فى الآيات السالفة شمول قدرته تعالى لكل شىء وإحاطة علمه بما  
يسرون وما يعلنون بما فى الصدور - قفى على فى ذلك بذكر ما يهيمُّ الناس من آثار قدرته  
ومتعلقات علمه ، وهو ما يتعلق بحياتهم وشئونهم المختلفة ، ثم بذكر خلقه للعالم كله ،  
ومكان عرشه قبل هذا من ملكه ، وبلاء البشر بذلك ليظهر أيهم أحسن عملا ،  
ثم بعثه إليهم بعد الموت لينالوا جزاء أعمالهم مع إنكار الكفار لذلك وطلب استعجال  
العذاب الذى أوعدهم به مع بيان أنه واقع بهم لاحالة إن أصروا على كفرهم .

### الايضاح

(وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها) أى وما من دابة من أى نوع من  
أنواع الدواب فى الأرض إلا على الله رزقها ، لافرق فى ذلك بين الجنة (المكروبات)  
التي لا ترى بالأبصار ، وبين ضخام الأجسام ، والوسطى بين هذه وتلك ، وقد أعطى  
كلا خلقه المناسب لمعيشته ، ثم هداه إلى تحصيل غذائه بالفريزة والقطرة ، والله تعالى  
حكم فى خلق كل نوع منها ، فإن خفى علينا أمر خلق الحيات والسنائير ونحوها ، فلنا  
أن نقول مثلا إنه لولاها لضاعت الأرض بكثرة إحيائها ، أو لأتنت من كثرة أمواتها .  
ومعنى كفايته تعالى لوزقها أنه سخره لها وهداها إلى طلبه وتحصيله كما قال :  
« رَبَّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى » وقد علم بنصوص القرآن وسنن

الله فى الخلق وأسباب الرزق أن مشيئته تعالى لا تكون إلا بمقتضى سننه فى ارتباط الأسباب بالمسببات مع الحكمة فى ذلك ، لأنه يأتيها بمحض قدرته سواء طلبته أم لا . ( ويعلم مستقرها ومستودعها ) أى ويعلم حيث تستقر وتقيم ، وحيث كانت مودعة إلى حين ، ويرزقها فى كلتا الحالين .

( كلّ فى كتاب مبين ) أى كل الدواب وأرزاقها ومستقرها ومستودعها ثابت مرقوم فى كتاب مبين أى فى لوح محفوظ كتب الله فيه مقادير الخلق كلها .

( وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ) أى فى ستة أيام من أيام الله فى الخلق والتكوين وماشاء من الأطوار ، لامن أيامنا فى هذه الدار التى وجدت بهذا الخلق لاقبله ، فلا يصح أن تقدر أيام الله بأيامنا ، ويؤيد هذا قوله تعالى : « وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ » وقوله : « تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ » .

وقد أثبت علماء الفلك أن أيام غير الأرض من الكواكب التابعة لنظام شمسنا تختلف عن أيام هذه الأرض فى طولها بحسب أجرامها وأبعادها وسرعتها فى دورانها ، وأن أيام التكوين بخلق الله تعالى من الدخان الذى يعبرون عنه بالسديم شموسا مضئية تتبعها كواكب منيرة - يقدر اليوم منها بالوف الألف من سنينا هذه .

( وكان عرشه على الماء ) أى وكان سرير ملكه فى أثناء هذا الطور من خلق هذا العالم أو من قبله على الماء ، وعرش الرحمن من عالم الغيب الذى لا ندركه بحواسنا ، ولا نستطيع تصويره بأفكارنا ، فلا نعلم كنهه استوائه عليه ولا صدور تدبيره لأمر هذا الملك العظيم ، ومن ثم روى عن أمّ سلمة رضى الله عنها وعن مالك وربيعة قولهم : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول .

ومن الآية نعلم أن الذى كان دون العرش من مادة الخلق قبل تكوين السموات والأرض هو الماء الذى جعله الله أصلا لخلق جميع الأحياء كما قال : « أَوَلَمْ يَرِ

الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ؟ » أى إنه يجب عليهم أن يعلموا أن السموات والأرض كانتا مادة واحدة متصلة لا فتق فيها ولا انفصال ، وهى ماتسمى لدى علماء الفلك السديم ، وبسميها القرآن الدخان ، ففتقناها بفصل بعضهما من بعض فكان منها ماهو سماء ومنها ماهو أرض ، وجعلنا من الماء كل شيء حى ، أفلا يؤمنون بأن الرب الذى خلق كل هذا هو الذى يُعبد وحده ولا يُشرك به شيء ، وأنه قادر على إعادة الخلق كما بدأه أول مرة ؟ .

والخلاصة — إن الماء أصل جميع الأحياء وهو الذى ينزل إليه أمر التدبير والتكوين .

ثم علل خلقه بما ذكر ببعض حكمه الخاصة بالمكلفين المخاطبين بالقرآن فقال :  
( لِيُبْلِغَكُمْ أَيْكُمْ أَحْسَنَ عَمَلًا ) أى ليجعل ذلك ابتلاء واختبارا لسمكم فيُظهر أَيْسَكُمْ أَحْسَنَ إِتْقَانًا لما يعمله لنفسه وللناس ، ذاك أنه تعالى سخر لنا مافى الأرض وجعلنا مستعدين لإبراز ماأودعه فيها من منافع وفوائد مادية ومعنوية ، ومستعدين للإفساد والضرر ، ليجزى كل عامل بما يعمل ، وإنما يتم ذلك ويظهر فى الآخرة .

( ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ) أى ولئن أخبرت هؤلاء المشركين أن الله سيبعثهم بعد مماتهم كما بدأهم ، ليجزيهم فيما بلاهم به كما قال : « لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى » ليجزيَنك الذين كذبوا بقاء الله قائلين : ما هذا الذى جئتنا به من هذا القرآن لتسحرنا لطاعتك وتمنعنا عن لذات الدنيا — إلا سحر بين ظاهر تسحر به العقول وتسخر به الضمائر والقلوب .

وبعد أن ذكر مايقوله المنكرون للبعث ذكر مايقوله المنكرون لإِنذار الرسول صلى الله عليه وسلم إياهم عذاب الدنيا والآخرة بتكذيبهم له فقال :  
( ولئن أخرجنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن مايجبسه ؟ ) أى ولئن أخرجنا

عنهم عذابنا الذى توعدّهم به الرسول صلى الله عليه وسلم إلى حين من الزمن مقدر فى علمنا وهو مقتضى سنتنا فى خلقنا ، و بيناه فى كتابنا بقولنا « لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ » ليقولن استهزاء ، أى شىء يمنع هذا العذاب من الوقوع إن كان حقاً .  
 ( ثم توعدّهم بنزوله فقال ألا يوم يأتهم ليس مصروفاً عنهم ) أى ألا إن له يوماً يأتهم فيه حين تنتهى المدة المضروبة دونه ، ويؤمئذ لا يصرفه صارف ، ولا يحبسّه حابس .  
 ( وحقاً بهم ما كانوا به يستهزئون ) أى وسيحيط بهم يومئذ من كل جانب ما كانوا يستهزئون به من العذاب قبل وقوعه ، فلا هو يصرف عنهم ، ولا ينجون منه .

وَلَيْنِ أَدَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُوفُ كَافُورٌ (٩)  
 وَلَيْنِ أَدَقْنَاهُ نَعْمَاءً بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسْتَةٍ لَيَقُولُنَّ دَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ، إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ  
 وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١)

### تفسير المفردات

الإِذَاقَةُ هنا : الإِعطَاءُ القليل ، والنزع : السلب والحرمان ، واليُثُوس : شديد اليأس من عود تلك النعمة ، والكفور : كثير الكفران والجهود لما سلف عليه من النعم ، والنعماء والنعمة والنعمى : الخير والمنفعة ، ويقابلها الضراء والضّر ، وفرح : بطر مغتر بهذه النعمة ، فخور : متعاطف على الناس بما أوتى من النعم ، مشغول بذلك عن القيام بشكرها .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه خلق السموات والأرض ليبلى الإنسان أيشكر أم يكفر؟  
 فنى على ذلك بذكر طبيعة الإنسان فى ذلك ، وهى أنه إذا أصابته نعماء ثم نزعَتْ منه

قَنِطَ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ وَكَفَرُ بِهَا ، وَإِذَا أَذَاقَهُ نِعْمَةً بَعْدَ بُؤْسٍ بِطَرٍ وَفَخِرَ - هَكَذَا شَأْنُ الْإِنْسَانِ - إِلَّا مَنْ صَبَرَ وَشَكَرَ وَعَمِلَ صَالِحًا .

### الإيضاح

( وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْهَا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ ) أَيْ وَلَئِنْ أَعْطَيْنَا الْإِنْسَانَ نَوْعًا مِنْ أَنْوَاعِ النِّعَمِ كَرِخَاءٍ عَيْشٍ وَبَسْطَةِ رِزْقٍ وَصِحَّةٍ وَأَمْنٍ وَوَلَدٍ بَارٍ ، رَحْمَةً سَبْتَدَأَ مِنْهَا أَذْقَانَهُ لَذَاتِهَا فَكَانَ شَدِيدَ الْإِغْتِبَاطِ بِهَا ، ثُمَّ سَلَبْنَا ذَلِكَ بِمَا يَحْدُثُ مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي قَدَّرَهَا اللَّهُ فِي الْخَلْقِ كَالْمَرَضِ وَالْمَوْتِ وَالْعَمَرُ ، إِنَّهُ لَيُظَلُّ فِي هَذِهِ الْحَالِ شَدِيدَ الْيَأْسِ مِنَ الرَّحْمَةِ ، قَاطِعًا لِلرَّجَاءِ مِنْ عَوْدِ تِلْكَ النِّعْمَةِ ، كَثِيرَ الْكَفَرَانِ لغيرِهَا مِنْ النِّعَمِ الَّتِي لَا يَزَالُ يَتَمَتَّعُ بِهَا فَضْلًا عَمَّا سَلَفَ مِنْهَا .  
وَالْخِلَاصَةُ - إِنَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَ الْيَأْسِ بِعَوْدَةِ مَا نُزِعَ مِنْهُ وَالْكَفَرِ بِمَا بَقِيَ لَهُ ، لِحُرْمَانِهِ مِنْ فَضِيلَتِي الصَّبْرِ وَالشُّكْرِ .

( وَلَئِنْ أَذْقَانَهُ نِعْمًا بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسْتَه لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ ) أَيْ وَلَئِنْ كَشَفْنَا عَنْهُ الضَّرَاءَ الَّتِي أَصَابَتْهُ وَحَلَّ مَحَلَّهَا نِعْمًا ، كَشَفَاءٍ مِنْ مَرَضٍ ، وَزِيَادَةِ قُوَّةٍ ، وَخُرُوجٍ مِنْ عَسَرٍ إِلَى يَسَرٍ ، وَنَجَاةٍ مِنْ خَوْفٍ وَذَلٍّ ، إِنَّهُ لَيَقُولَنَّ : ذَهَبَ مَا كَانَ يَسُوءُنِي مِنَ الْمَصَائِبِ وَالضَّرَاءِ وَلَنْ يَعُودَ ، وَمَا هِيَ إِلَّا سَحَابَةٌ صَيْفٌ قَدْ تَقَشَّعَتْ ، وَعَلَى أَنْ أَنْسَاهَا وَأَتَمَتَّعَ بِتِلْكَ اللَّذَاتِ ، وَإِنَّهُ حِينَئِذٍ لَشَدِيدُ الْفَرَحِ بِمَا يَهَيِّجُهُ الْبَطَرُ بِتِلْكَ النِّعْمَةِ ، وَإِنَّهُ لَيَغَالِي فِي الْفَخْرِ وَالتَّعَالَى عَلَى النَّاسِ وَالْإِحْتِقَارِ لِمَنْ دُونَهُ فِيهَا .

وَالْخِلَاصَةُ - أَنَا إِذَا مَنَحْنَا هَذَا الْإِنْسَانَ الْيَتُوسَ الْكَافِرَ نِعْمًا أَذْقَانَهُ لَذَاتِهَا بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسْتَه بِاقْتِرَافِهِ أَسْبَابَهَا لَمْ يَقَابِلْهَا بِشُكْرِ اللَّهِ عَلَيْهَا ، بَلْ يَبْطُرُ وَيَفْخَرُ عَلَى النَّاسِ وَلَا يَقُومُ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنْ مُوَاسَاةِ الْبَائِسِينَ الْفُقَرَاءَ وَعَمَلِ الْخَيْرِ لِبَنِي الْإِنْسَانِ كَفَاءً مَا هُوَ مُتَمَتِّعٌ بِهِ مِنْ تِلْكَ النِّعَمِ .

ثُمَّ اسْتَنْثَى سُبْحَانَهُ مِنْ جَنْسِ الْإِنْسَانِ فِيمَا ذَكَرَ مِنْ حَالِيهِ السَّالِفَتَيْنِ قَبْلَ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ فَقَالَ :



(إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير) أى إلا الذين صبروا على ما أصابهم من الضراء إيماناً بالله واحتساباً للأجر عنده ، وعملوا الصالحات حينما يكشفها ويبدل النعماء بها ويشكره باستعمالها فيما يرضيه من عمل البر والخير لعباده ، أولئك لهم مغفرة من ربهم تمحو ما علق بأنفسهم من ذنب أو تقصير ، وأجر كبير فى الآخرة على ما وفقوا لعمله من بر وخير كثير .

والخلاصة — إن الإنسان وإن كان مؤمناً حق الإيمان لا يسلم من ضيق صدر حين حلول الضراء والمصائب ، وذلك مما ينافى كمال الرضا ، كما لا يسلم حين النعماء من شيء من الزهو والتقصير فى الشكر ، فيغفر له كل منهما بصره وشكره وإنابته إلى ربه . وقد جاء بمعنى الآية قوله تعالى : « وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَنِىْ خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ » .

ووصف الأجر بالكبير — لما حواه من نعيم سرمدى وأمن من العذاب ورضا من الله عز وجل ونظر إلى وجهه الكريم «وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ» .

فَلَمَّا تَرَكَ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ، إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِمِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَاذْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُمْ مُسْلِمُونَ (١٤)

### تفسير المفردات

لعل هنا للاستفهام الإنكارى الذى يفيد النهى ، وضيق الصدر : يراد به الغم والحزن ، والكنز : ما يدخر من المال فى الأرض ، والوكيل : الرقيب الحفيظ للأمر ،

الموكل بحراستها ، والاستجابة للداعي : إجابته ، والإسلام : الإذعان والخضوع والالتقياد .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه في بدء السورة قولهم في القرآن : إنه سحر مبين ، وأنهم يستغشون ثيابهم كي لا يسمعوه - قفى على ذلك بذكر تكذيبهم للرسول صلى الله عليه وسلم والقرآن وبيان أن همه وحزنه صلى الله عليه وسلم قد بلغ من كلامهم كل مبلغ ، ثم أعقبه بتحدّيه لهم بالقرآن كي يأتوا بعشر سور مثله ، حتى إذا ما عجزوا علم أنه وحى من عند الله .

روى عن ابن عباس أن الآية نزلت حين قال رؤساء مكة : يا محمد اجعل لنا جبال مكة ذهباً إن كنت رسولا ، وقال آخرون : اثنتا بالملائكة يشهدون بنبوّتك فقال لا أقدر على ذلك .

### الايضاح

( فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك ) أى أفتركت أنت أيها الرسول بعض ما يوحى إليك ، مما يشقّ سماعه على المشركين من الأمر بالتوحيد والنهى عن الشرك والإنذار والوعيد لهم ، والنهى على معبوداتهم وتسفيه أحلامهم ، وضائق به صدرك أن تبلغهم إياه كما أنزل .

ذاك أنهم كانوا يتهاونون به ، فيضيق صدره أن يلقى إليهم ما لا يقبلون وما يضحكون منه ، فاستحسنته سبحانه على أداء الرسالة وعدم المبالاة باستهزائهم ، وطرح مقالاتهم الساخرة وراءه ظهريا .

وخلاصة ذلك — تحمل أخف الضررين وهو تحمل سفاهتهم ، على ترك بعض الوحي والوقوع في الخيانة فيه .

( أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك ) أى كراهة أن يقولوا : هلا أعطاه ربه كنزا من عنده يغنيه ويمتاز به عن غيره ، أو جاء معه ملك يؤيده في دعوته كما حكي الله عنهم في سورة الفرقان « وَقَالُوا مَا هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا . أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا » .

وجملة المعنى — إن عنادهم وجحودهم وإعراضهم عن الإيمان وشدة اهتمامك بأمرهم مما من شأنه أن يقتضى ضيق الصدر بحسب الطباع البشرية أو أن يخطر على البال ترك بعض الوحي ، ولولا عصمتنا إياك وتبئتنا لك لاجترحت ذلك واستسامت لماثلته جرت العادة ، ولكن الله حفظك حتى تؤدي رسالته وترحم العالمين بنور نبوتك كما قال : « وَلَوْلَا أَنْ تُبَيِّنَاكَ لَقَدْ كُنْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا » .

وقد جاء بمعنى الآية قوله تعالى : « فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا » وقوله : « وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ » وقوله : « الْمَص . كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِيُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ » .

( إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل ) أى ليس عليك إلا إنذارهم بما أوحى إليك غير مبال بما يصدر منهم ويطلق ألسنتهم ، والله هو الرقيب على عباده وليس عليك من أعمالهم شيء .

وقد جاء بمعنى الآية قوله : « لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » وقوله « فَذَكَرْ إِنَّمَّا أَنْتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ » وقوله : « نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ » .

و بعد أن ذكر ضيق صدره لتكذيب المشركين له ، قفى على ذلك بذكر ما قالوه فى القرآن فقال :

( أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ) أى بل أيقول هؤلاء المشركون من أهل مكة إن محمدا قد افترى هذا القرآن ؟ فقل لهم إن كان الأمر كما تزعمون فأتوا بعشر سور مثله مفتريات من عند أنفسكم لاتدعون أنها من عند الله ، فإنكم أهل اللسن والبيان والمران على المفاخرة بالفصاحة والبلاغة وفنون الشعر والخطابة ، ولم يسبق لى مع العمر الطويل الذى عشته بينكم أن أزالو شيئا من ذلك ، فإن كان من كلام البشر فأنتم على مثله أقدر ، وإنكم لتعلمون أنى لم أ كذب على بشر قط ، فكيف أفترى على الله ، وإن زعمتم أن لى من يعيننى على تأليفه ووصفه ، فادعوا من استطعتم ممن تعبدون غير الله ، ومن جميع خلقه ليساعدوكم على الإتيان بهذه السور العشر ، ولتكن مثله مفتريات تشتمل على مثل ما فيه من تشريع دينى ومدنى وحكم ومواعظ ، وآداب وأنباء غيبية إخبارا عن ماض ، وأنباء غيبية إخبارا عن مستقبل ، بمثل هذا النظام البديع والأسلوب البالغ حد الإعجاز ، والبلاغة الساحرة للألباب ، والسلطان الحاكم على الأنفس والأرواح - إن كنتم صادقين فى دعواكم .

والخلاصة - إن مشركى مكة المعاندين لم يجدوا شبهة فى القرآن بعد شبهة السحر التى لم تجد آذانا صاغية عند العرب ، لأنهم أرباب الفصاحة واللسن فعرفوا فضله على سائر الكلام - إلا زعمهم أن محمدا قد افتراه جملة وليس بوحي من عند الله ، فتحداهم بالإتيان بعشر سور مثله فى النظم والأسلوب ، محتوية على التشريع القيم من دينى ومدنى وسياسى ، وحكم ومواعظ وآداب ، وكلّفهم دعوة من استطاعوا من دون الله ليظاهروهم ويعاونوهم على ذلك ، فعجزوا ولم يجدوا من فصحاءهم من يستجيب لهم ، فقامت الحجة عليهم وعلى غيرهم إلى يوم الدين ، وهذا معنى قوله :

( فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله ) أى فإن لم يستجب لكم من

تدعونهم من دون الله ليعاونوكم على الإتيان بالعشر السور الماثلة للقرآن من خول الكتاب ومصانع الخطباء وعلماء أهل الكتاب العارفين أخبار الأنبياء ، فاعلموا أنما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم بمقتضى علم الله وإرادته أن يبلغه لعباده على لسان رسوله ولا يقدر عليه محمد ولا غيره ممن تدعونه زورا أنهم أعانوه ، لأنه من علم الغيب الذى لا يعلمه إلا من أعلمه الله به .

( وأن لا إله إلا هو ) أى واعلموا أنه لا إله يعبد بحق إلا هو ، إذ من خصائص الإله أن يعلم ما لا يعلمه غيره ، وأن يعجز عن عداه عن مثل ما يقدر عليه .

( فهل أنتم مسلمون ) أى فهل أنتم بعد أن قامت عليكم الحجة داخلون فى الإسلام الذى أدعوكم إليه بهذا القرآن ، مؤمنون بما فيه من عقائد ووعد ووعيد وأحكام وحكم وآداب .

والخلاصة - إنه لم يبق لكم بعد أن دحضت شبهتكم وانقطعت معاذيركم إلا جود العناد وإعراض الاستكبار ، والعاقل النصف لا يرضى لنفسه بمثل هذا دعاء المشركين .

### افتراء النبي صلى الله عليه وسلم للقرآن

افتراء القرآن يشمل ناحيتين :

(١) افتراء فى جملته بإسناده إلى الله ادعاء أنه من كلامه أوحاه إليه .

(٢) افتراء أخبار الغيب التى يدعى أنها من عند الله ولا يعلمها إلا هو وبها استدل على نبوته ، وقد حكى الله عنهم ادعاء الأسمين فى سورة الفرقان بقوله : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا . وَقَالُوا أَطَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْنَلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا » .

وأساطير الأولين : هى قصصهم وأكاذيبهم التى سطورها ، وكانت العرب تسلى نفسها بمن جعلها بالآديان والتواريخ بزعمهم أنها أساطير الأولين .

وأنباء الغيب ضربان :

- ( أ ) أنباء الغيب الماضية ، وتشمل قصص الرسل مع أقوامهم ، وأخبار التكوين كخلق السموات والأرض وما بينهما كخلق الإنسان والجان .
- ( ب ) أنباء الغيب الآتية ، وتشمل وعد الله بنصره لرسله والمؤمنين وجعل العاقبة لهم واستخلافهم في الأرض وخذلان أعدائهم الكافرين ، والقيامة والبعث والحساب والجزاء على العقائد والأعمال ، وقد كانوا ينكرون ذلك ويستبعدونه .

### ما حوته قصص القرآن

- إن في قصص القرآن لأشعةً من ضياء العلم والهدى جاءت على لسان كهل أميٍّ لم يكن منشئاً ولا راوية ولا حافظاً ، ويمكن أن نجمل أغراضها فيما يلي :
- ( ١ ) بيان أصول الدين المشتركة بين جميع الأنبياء من الإيمان بالله وتوحيده وعلمه وحكمته وعدله ورحمته والإيمان بالبعث والجزاء .
- ( ٢ ) بيان أن وظيفة الرسل تبليغ وحى الله لعباده فحسب ، ولا يملكون وراء ذلك نفعا ولا ضرا :
- ( ٣ ) بيان سنن الله في استعداد الإنسان النفسى والعقلى لكل من الإيمان والكفر والخير والشر .

- ( ٤ ) بيان سنن الله في الاجتماع وطباع البشر وما في خلقه للعالم من الحكمة .
- ( ٥ ) آيات الله وحججه على خلقه في تأييد رسله .
- ( ٦ ) نصائح الأنبياء ومواعظهم الخاصة بكل قوم بحسب حالهم كقوم نوح في غوايتهم وغرورهم ، وقوم فرعون وملته في ثروتهم وعتوهم ، وقوم عاد في قوتهم وبطشهم ، وقوم لوط في فحشهم .

فإن أمكن أن يكون كل هذا حديثاً مفترى ، فإن مفتريه يكون أكل منهم جميعاً علماً وعملاً وهداية وإصلاحاً ، فما أجدرهم أن يتبعوه ، وما أحقهم أن يهتدوا بهديه ،

ولن يكشف حقيقة أمره إلا من يستطيع أن يأتى بحديث مثله ولو مفترى فى صورته وموضوعه ، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين .

ومن المعلوم أن الاحتذاء والاتباع ، أهون من الابتداء والابتداع .

ولكن افتراء الأُمى لهذه العلوم الإلهية والنفسية والتشريعية محال ، فقد عجز عن مثلها حكماء العلماء - أفهكذا يكون الافتراء ، والحديث المفترى الذى يُنهى عنه العقلاء وفى التحدى بهذه السور العشر توسيع على المنكرين إن حدثتهم أنفسهم أن يتصدوا لمعارضته ، لكنهم لم يستطيعوا فقامت عليهم وعلى غيرهم الحجة إلى يوم القيامة .

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مِّمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦)

### تفسير المفردات

نوف إليهم : أى نوصل إليهم ، ولا يبخسون : لا ينقصون ، وحبط : أى فسد وبطل ولم ينتفعوا به .

### المعنى الجملى

بعد أن أقام الحجة على حقيقة دعوة الإسلام ، وعلى أن القرآن من عند الله وليس بالمفترى من عند محمد صلى الله عليه وسلم كما يدعيه المشركون - قفى على ذلك ببيان أن الباعث لهم على المعارضة والتكذيب ليس إلا شهواتهم وحظوظهم الدنيوية والإسلام يدعو إلى إيثار الآخرة على الأولى .

## الايضاح

( من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوّف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون )  
 أى من كان حظهم من الدنيا التمتع بلذاتها من طعام وشراب ، وزينتها من اللباس  
 والأثاث والرياش والأموال والأولاد دون استعداد للحياة الآخرة بعمل البر والإحسان  
 وتزكية النفس بعمل الطاعات بياعث الإيمان - نوّد إليهم ثمرات أعمالهم وافية تامة  
 بحسب سنتنا فى الأسباب ولا يُنْقَصُونَ شيئاً من نتاج كسبهم لأجل كفرهم ، إذ مدار  
 الأرزاق فيها على الأعمال لاعلى النيات والمقاصد ، وإن كان لهداية الدين أثر فى ذلك  
 كالاستقامة والصدق ، واجتناب الخيانة والزور والغش ونحو ذلك .

والخلاصة - إن جزاء الأعمال فى الدنيا منوط بأمرين : كسب الإنسان ،  
 وقضاء الله وقدره به ، وأما جزاء الآخرة فهو بفعل الله تعالى بلا واسطة أحد .  
 « وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا » .

( أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا  
 يعملون ) أى هؤلاء الذين لا همّ لهم إلا الدنيا وزينتها ، ليس لهم فى الآخرة إلا النار ،  
 لأن الجزاء فيها على الأعمال كالجزاء فى الدنيا ، وهم لم يعملوا للآخرة شيئاً ، فإن العمل  
 لها يكون بتزكية النفس بالإيمان وعمل الفضائل - وبالتقوى باجتناب المعاصى والذائل ،  
 وما صنعوه فيها مما ظاهره البر والإحسان كالصدقة وصلة الرحم ونحو ذلك لم يكن تزكية  
 لأنفسهم تقرّ بهم إلى ربهم ، بل كان لأغراض نفسية من شهواتها كالرياء والسمعة  
 والاعتزاز بذوى القربة على الأعداء ولو بالباطل ، فلا أجر له فيها وقد انقطع  
 أثره الدنيوى .

وقد جاء فى معنى الآية قوله تعالى : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا  
 مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا . وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ



وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا . كَلَّا نُمَدِّهُ هُوْلَاءَ وَهَوْلَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا . انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا » وقوله صلى الله عليه وسلم « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه . »

والخلاصة — أن الدين يبيح التمتع بالطيبات من المآكل والمشرب ، ويبيح الزينة في غير سرف ولا خيلاء ، على شريطة ألا يجعلها المرء كل همه في الحياة ، فيحتقر المواهب الإنسانية من عقلية وروحية وهي التي سماها الإنسان على غيره من المخلوقات ، ألا ترى أن الثور يفضل في كثرة الأكل ، والبعير في كثرة الشرب ، والعصفور في كثرة السَّفاد ، والطاوس في الزينة ولمعان اللباس .

أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَبِينَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١٧) .

### تفسير المفردات

البينة : ما يتبين به الحق كالبرهان في الأمور العقلية ، والنصوص في الأمور النقلية ، والتجارب في الأمور الحسية ، والشهادة في القضاء ، ويتلوه : يتبعه ، والشاهد : هو القرآن ، والموعود : مكان الوعد وهي النار يردّها كما قال : « لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ » والمرية : الشك .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه مآل من كان يريد الدنيا وزينتها ولا يهتم بالآخرة وأعمالها -  
قفى على ذلك بذكر من كان يريد الآخرة ويعمل لها ، وكان على بينة من ربه فى كل  
ما يعمل ومعه شاهد يدل على صدقه ، وهو القرآن ، ومآل من أنكر صحته وكفر به .

## الإيضاح

( أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماماً  
ورحمة ) أى أفمن كان على نور وبصيرة فى دينه ويؤيده نور غيبي يشهد بصحته وهو  
القرآن المشرق النور والهدى ، ويؤيده شاهد آخر جاء من قبله . وهو الكتاب الذى  
أنزل على موسى عليه السلام حال كونه إماماً متبّعاً فى الهدى والتشريع ، ورحمة لمن  
آمن وعمل به من بنى إسرائيل ( وشهادة موسى لهذا النبي الكريم شهادة مقال  
بالبشارة بنبوته ، وشهادة حال وهى التشابه بين رسالتهما ) - أى أفمن كان على هذه  
الأوصاف كمن يريد الحياة الدنيا الفانية وزينتها الموقوتة ، ويظل محروماً من الحياة  
العقلية والروحية التى توصل إلى سعادة الآخرة الباقية .

ونحو الآية قوله : « أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ »  
وإجمال المعنى - أفمن كان كامل الفطرة والعقل ، وعرف حقيقة الوحي وهو  
القرآن وما فيه من نور وهداية ، وعرف تأييده بالوحي السابق الذى اهتدى به  
بنو إسرائيل ، فتظاهرت لديه الحجج الثلاث فى الهداية ( كمال الفطرة ، ونور القرآن  
والوحي الذى أنزل على موسى ) كمن حرم من ذلك وكان همه مقصوراً على الحياة  
الفانية ولذاتها .

( أولئك يؤمنون به ) أى أولئك الذين جمعوا بين البينة الوهيمية ، والبينة الكسبية  
النقلية ، يؤمنون بهذا القرآن إيمان يقين وإذعان ، على علم بما فيه من الهدى والفرقان ،  
فيجزمون بأنه ليس بالمفتَرى من دون الله ولم يكن من شأنه أن يكون كذلك .

(ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده) أى ومن يكفر بهذا القرآن فيجحد أنه من عند الله ممن تحزبوا من أهل مكة وزعماء قريش للصدّ عنه . قال مقاتل هم بنو أمية وبنو المغيرة بن عبد الله الحزومي وآل طلحة بن عبيد الله ، والذين سيتحزبون لمثل ذلك من أهل الكتاب - فإنه يصير إلى جهنم من جرّاء تكذيبه لوعيده الذى جاء فى نحو قوله « أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ » .

(فلا تك فى مرية منه إنه الحق من ربك) أى فلا تكن أيها المكلف فى شك من أمر هذا القرآن إنه الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه آتيا من ربك وخالقك الذى يربّيك بما تكلم به فطرتك ، ويوصلك إلى سعادتك فى دنياك وآخرتك .

(ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) أى ولكن أكثر الناس لا يؤمنون هذا الايمان الكامل ، أما المشركون منهم فلاستكبار زعمائهم ورؤسائهم ، وتقليد مرءوسيههم وعامتهم لهم ، وأما أهل الكتاب فلتحريفهم دين أنبيائهم وابتداعهم فيه .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨)  
الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩) أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (٢٠) أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَاسِرُونَ (٢٢) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ

الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣) مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ  
وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ؟ (٢٤).

### تفسير المفردات

الأشهاد : واحد شاهد ، واللعنة : الطرد من الرحمة ، والصدّ عن سبيل الله :  
الصرف عنه ، والعوج : الالتواء ، ومعجزين فى الأرض ، أى لا يمكنهم أن يهربوا من  
عذابه ، وضل : أى غاب ، ولا جرم : أى حقا ، وأخبتوا : أى خضعوا وخضعوا  
وأصله من الخبت ، وهو الأرض المطمئنة .

### المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه فيما سبق أن الناس فريقان : فريق يريد الدنيا وزينتها  
وفريق على بينة من ربه ، قفّ على ذلك ببيان حال كل من الفريقين فى الدنيا وما يكون  
عليه فى الآخرة .

### الإيضاح

(ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) أى لا أحد أظلم لنفسه ولغيره ممن افترى  
على الله كذبا فى أقواله أو أفعاله ، أو أحكامه أو صفاته ، أو فى اتخاذ الشفعاء والأولياء له  
بدون إذنه أو فى زعم أنه اتخذ له ولدا من الملائكة كالعرب الذين قالوا للملائكة  
بنات الله ، والنصارى الذين قالوا المسيح ابن الله ، أو فى تكذيب ما جاء به رسوله من  
دينه لصدّ الناس عن سلوك سبيله .

( أولئك يعرضون على ربهم ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ،  
ألا لعنة الله على الظالمين ) أى ويوم القيامة تعرض أعمال هؤلاء وأقوالهم على ربهم  
لحسابتهم ، ويقول الذين يقومون للشهادة عليهم من الملائكة والأنبياء وصالحى  
المؤمنين : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم بالافتراء عليه ، ويفضحونهم بهذه الشهادة  
المقرونة باللجنة الدالة على خروجهم من محيط الرحمة .

وقد جاء فى معنى الآية قوله تعالى : « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ  
الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ . يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ  
الدَّارِ » وفى حديث ابن عمر فى الصحيحين وغيرهما : سمعت رسول الله صلى الله  
عليه وسلم يقول : « إن الله يدنى المؤمن حتى يضع كنفه عليه ويستره من الناس  
ويقرره بذنوبه ويقول له : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول : رب  
أعرف ، حتى إذا قرره بذنوبه ورأى فى نفسه أنه قد هلك قال فإنى سترتها عليك  
فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ، ثم يُعطى كتاب حسناته . وأما الكافر والمنافق فيقول :  
الأشهاد ( هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، ألا لعنة الله على الظالمين ) » .

( الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون ) أى إن  
الظالمين هم الذين يمتنعون الناس ويصرفونهم عن سبيل الله ( وهى دينه القيم وصراطه  
المستقيم ) ويصفونها بالعوج والالتواء لينفروا الناس منها ، والحال أنهم كافرون بالآخرة  
لا يؤمنون ببعث ولا جزاء .

( أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء  
يضاعف لهم العذاب ) أى إن هؤلاء الذين يصدون عن سبيل الله لم يكونوا بالذين  
يُعْجِزُونَ ربهم بهربهم منه فى الأرض إذا أراد عقابهم ، بل هم فى قبضته وماله ،  
لا يمتنعون منه إذا أرادهم ولا يفتونونه هر با إذا طلبهم ، ولم يكن لهم أنصار ينصرونهم  
من دونه ويحولون بينهم وبينه إذا هو عذبهم ، ويضاعف لهم العذاب من أجل  
ضلالهم وإضلالهم .

ثم بين علة هذه المضاعفة بقوله :

( ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون ) أى ما كانوا يستطيعون إلقاء أسماعهم إلى القرآن إصغاء لدعوة الحق ، لاستحواذ الباطل على أنفسهم ورَيْن الكفر والظلم على قلوبهم ، كما حكى الله عنهم بقوله : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ » وما كانوا يبصرون ما يدل على صدقه فى الأنفس وفى الآفاق .

وإجمال المعنى — إنهم لشدة انهماكهم فى الكفر واتباع الهوى والشهوات صاروا يكرهون الحق والهدى ، فيثقل عليهم سماع ما يبينه من الآيات السمعية وما يثبت به من الآيات البصرية ، فهم قد ختم الله على سمعهم وعلى أبصارهم فلا يسمعون الحق سماع منتفع ولا يبصرون حجج الله بإبصار مهتدٍ .

( أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ) أى أولئك الذين هذه صفتهم هم الذين غبنوا أنفسهم حظوظها من رحمة الله ، بافترائهم عليه واشتراء الضلالة بالهدى ، وبطل كذبهم بادعاء أن له شركاء وشفعاء يقر بونهم إليه زانٍ ، ثم سُلِّك بما كانوا يدعون من دون الله غير مسلكهم ؛ إذ سُلِّك بهم إلى جهنم وصارت آلتهم عدما ؛ لأنها كانت فى الدنيا أحجارا أو خشبا أو نحاسا ، وذلك هو ضلالهم وبعدهم عنهم .

( لاجرم أنهم فى الآخرة هم الآخسرون ) أى حقا إنهم فى الآخرة أشد الناس خسرانا ، إذ هم قد اعتاضوا عن نعيم الجنان ، بحميم آنٍ ، وعن شرب الرحيق المختوم ، بسموم وحميم ، وظلٍّ من يحموم ، وعن المحور العين ، بطعام من غسلين ، وعن قرب الرحمن ، بعقوبة الملك الديان .

وبعد أن بين حال الكافرين وأعمالهم ومآلهم ، بين حال المؤمنين وعاقبة أمرهم فقال :

( إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ) أى إن الذين صدقوا الله ورسوله وعملوا فى الدنيا الأعمال الصالحة ، فأتوا

بالطاعات وتركوا المنكرات ، وخشعت نفوسهم واطمأننت إلى ربهم - أوائلهم هم قُطَّان الجنة الذين لا يخرجون منها ولا يموتون ، بل هم ما كثون فيها أبدا .

( مثل القرىفين كالأعمى والأصم والبصير والسميع ) أى مثل فريقى الكافرين والمؤمنين وصفتهما الحسية التى تطابق حالهما كمثل الأعمى الفاقد لحاسة البصر فى خلقته ، والأصم الفاقد لحاسة السمع الذى حُرِّم وسائل العلم والمعرفة الإنسانية والحيوانية ، ومن هو كامل حاستى السمع والبصر ، فهو يستمد العلم من آيات الله فى خلقه بما يسمع من القرآن وبما يرى فى الأكوان ، وهما وسيلتا العلم والهدى لعقل الإنسان .

( هل يستويان مثلا أفلا تذكرون ؟ ) أى هل يستوى الفريقان صفة وحالا ومالا ؟ كلا ، إنهما لا يستويان ، أتغفلون عن ذلك المثل الجلى الواضح أفلا تذكرون ما بينهما من التباين والاختلاف فتعتبروا به ؟ .

وإجمال المعنى - إنه شبه الكافرين بالعمى الذين لا يستعملون أبصارهم فيما يفضلون به الحيوان العُجْم من فهم آيات الله التى تزيدهم علما وهدى ، وبالصم الذين لا يسمعون داعى الله إلى الرشاد والهدى فيجيبونه ويهتدون به ، وشبه المؤمنين الذين انتفعوا بأسماعهم وأبصارهم واهتدوا إلى الجنة وتركوا ما كانوا خابطين فيه من كفر وضلال ، بحال من هو سميع بصير فيتهدى بسمعه إلى ما يبعده من مواضع الهلاك ، ويتهدى ببصره بواسطة النور حين السير فى الظلام .

### قصة نوح عليه السلام

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْإِيمِ (٢٦) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ

هُمْ أَرَادُوا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ  
كَاذِبِينَ (٢٧).

### تفسير المفردات

الملاّ: الأشراف والزعماء وأراذل: واحد هم أراذل، وهو الخسيس الدنيء، وبادى  
الرأى: أى ظاهره قبل التأمل فى باطنه، وفضل: أى زيادة.

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر بعثة النبى الكريم، وأثبت بالبرهان أنه رسول من رب العالمين،  
وأن القرآن وحى من الرحمن الرحيم، قفى على ذلك بقصص الأنبياء قبله ليمين لقومه أن  
محمدًا صلى الله عليه وسلم ليس بدّعا من الرسل وأنه إنما بعث بمثل ما بعث به من قبله  
من الدعوة إلى عبادة الله وحده والإيمان بالبعث والجزاء، فخاله معهم كحال من قبله  
من الرسل عليهم السلام مع أقوامهم جملة وتفصيلا كما قال: « سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا  
قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ».

### الإيضاح

( ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إني لكم نذير مبين ) أى ولقد أرسلنا نوحا إلى  
قومه قائلا لهم إني لكم نذير من الله أنذركم بأسه على كفركم به، فآمنوا به  
وأطيعوا أمره.

ثم فسر هذا الإنذار بقوله:

( ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم ) أى ألا تعبدوا إلا الله  
ولا تشركوا به شيئا، وكانوا أول من أشرك بالله واتخذوا الأنداد، وكان هو أول رسول  
أرسله الله إلى أهل الأرض.



نم علل هذا بقوله :

إني أخاف عليكم الخ ، أى إن لم تخصوه بالعبادة وتفردوه بالتوحيد وتخلعوا مادونه من الأنداد والأوثان - أخف عليكم من الله عذاب يوم مؤلم عقابه وعذابه ، لمن عذَّب فيه .

وقد أجابوه عن مقالته بأربع حجج داحضة ظنا منهم أنها تكفى في رد دعوته .  
(١) ( فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا ) أى إن الأشراف والزعماء بادروا إلى الجواب بقولهم : ما أنت إلا بشر مثلنا فى الجنس لازمة لك علينا تجعلنا نطيعك ونذعن لنبوتك .

(٢) ( وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادی الرأي ) أى وإنا لم نرمتبعيك إلا الأخساء كالزراع والصناع ومن فى حكمهم فى المكانة الاجتماعية ، بادی الرأي قبل التأمل فى عواقبه ، والنظر فى مستنده ، وترجيح العقل له ، وهذا مما يرجح رد الدعوة والتولى عنها .

(٣) ( وما نرى لكم علينا من فضل ) أى وما نرى لك ولن اتبعك أدنى امتياز عنا من قوة أو كثرة أو علم أو أصالة رأى يحملنا على اتباعكم ويحملنا نزل عن جاهنا ومالنا ونكون نحن وأتم سواء .

(٤) ( بل نظنكم كاذبين ) أى بل إنا نرجح الحكم عليكم وعليهم بالكذب ، فأنت كاذب فى دعوى النبوة ، وهم كاذبون فى تصديقك ، وهذه الشبهة الأخيرة طعن على نوح عليه السلام أشركوا فيها أتباعه ولم يجابهوه بها وحده ؛ كما أنهم جعلوها ظنا ولم يجزموا بها ، لأن ذلك كاف فى رد دعوته ، وعدم الدخول فى دينه .

قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَدَيْنِ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُ كُفُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨) وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ، وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ

الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ ، وَلَسَكُنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩)  
 وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠)  
 وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ،  
 وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا ، اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا  
 فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١) .

### تفسير المفردات

أرايتم : أى أخبرونى ، والبيئة . ما يتبين به الحق ، وعميت : أخفيت ، وطرده :  
 أبعد ونحاه ، وتجهلون : أى تسفهون عليهم ، وهو من الجهالة التى تضاد العقل والحلم ،  
 وتذكرون أصله تتذكرون ، وزرى على فلان زراية : عابه واستهزأ به .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر مقالاتهم وطعنهم فى نوح عليه السلام بتلك الشبه السالفة ، قفى على  
 ذلك بدحض نوح لها ، ورد شبهات أخرى قد تكون صدرت منهم ولم يحكمها ، لعلها  
 من الرد عليها ، وربما لم يقولوها وإن كان كلامهم يستلزمها ، وهذا من خواص أسلوب  
 الكتاب الكريم ، وسر من أسرار بلاغته .

### الإيضاح

( قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت  
 عليكم ) أى قال يا قومى : أخبرونى ماذا ترون وماذا تقولون ، إن كنت على حجة فيما  
 جئتكم به من ربى يتبين لى بها أنه الحق من عنده ، لا من عندى ومن كسبى البشرى الذى  
 تشاركوننى فيه ، وآتانى رحمة من عنده وهى النبوة وتعاليم الوحي التى هى سبب رحمة

خاصة لمن يهتدى بها ، فحجبها عنكم جهلكم وغروركم بالمال والجاه فلم تتبينوا منها ما تدل عليه من التفرقة بينى وبينكم ، فمنعتم فضل الله عنى بحرماني من النبوة .  
( أنلزمكوها وأنتم لها كارهون ) أى أنكرهمكم على قبولها وأنتم معرضون عنها غير متدبرين لها ، كلا ، إنا لا نفعل ذلك ، بل نكل أمركم إلى الله حتى يقضى فى أمركم ما يرى ويشاء ، وما على إلا البلاغ .

وهذا أول نصّ فى دين الله على أنه لا ينبغي أن يكون الإيمان بالإكراه .  
وفى هذه الآية إثبات لنبوته عليه السلام ، وردّ لإنكارهم لها وتكذيبه ومن معه فيها ، وإبطال لشبهتهم فى أنه بشر مثلهم ، وقد فاتهم أن المساواة فى البشرية لا تقتضى استواء أفراد الجنس فى الكالات والفضائل ؟ فالمشاهدة والتجارب تدل على التفاوت العظيم بين أفراد البشر فى العقل والفكر والرأى والأخلاق والأعمال ، حتى إن الواحد منهم ليأتى بضروب من الإصلاح لقومه بالعلم والعمل يعجز عن مثلها الألوف من الناس فى أجيال كثيرة .

والناس ألف منهم كواحد وواحد كالألف إن أمرعرا  
فما بالك بمن يختصهم الله من عباده بما شاء مما لا كسب لهم فيه كالأنبياء  
والرسل الكرام .

( ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله ) أى لا أسألكم على نصيحتى لكم ودعوتكم إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له إلا خيركم ومصلحتكم ولا أريد بذلك مالا فأكون متهما فيه عندكم لمكانة حبّ المال من أنفسكم واعتزازكم به على وعلى الفقراء من أتباعى ، فما أجرى على ذلك إلا على الله الذى أرسلنى ، فهو الذى يجازينى ويثيبنى عليه .

ومثل هذه المقالة قد صدرت من جميع الأنبياء بعده ، فجاءت على لسان هود وصالح وشعيب ومحمد ، صلوات الله عليهم أجمعين كما ترى ذلك فى سورة الشعراء محكيًا عنهم .

( وما أنا بطارد الذين آمنوا ) أى ليس من شأنى ولا بالذى يكون منى أن أبعد من يؤمن بى ، وأنحيّة عنى احتقار له على أى حال كانت صفته .

وفى هذا إيماء إلى الجواب عن قولهم ( وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا ) وقد روى أنهم قالوا له يانوح إن أحببت أن نتبعك فاطرد هؤلاء ، فإننا لن نرضى أن نكون نحن وهم فى الأمر سواء .

ثم علل الامتناع من طردهم بقوله :

( إنهم ملاقور بهم ) أى إن هؤلاء الذين تسألوننى طردهم - صاثرون إلى ربهم وهو سائلهم عما كانوا يعملون فى الدنيا ، ولا يسألهم عن حسابهم وشرفهم .

( ولكنى أراكم قوما تجهلون ) أى تجهلون ما يمتاز به البشر بعضهم عن بعض من اتباع الحق والتحلى بالفضائل وعمل البر والخير ، وتظنون أن الميزة إنما تكون بالمال والجاه .

وقد جاء هذا المعنى فى قصته من سورة الشعراء : « قَالُوا أُنُوفٍ مِنْ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذُلُونَ . قَالَ وَمَا عَلِمَىٰ يَمًا كَانُوا يَعْمَلُونَ . إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رِئَىٰ لَوْ تَشْعُرُونَ . وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ . إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ » .

( وياقوم من ينصرنى من الله إن طردتهم ) أى وياقوم لا أجد أحدا يمنع عنى ما أستحقه من عقاب الله إن طردتهم بعد إيمانهم واتباعهم إياى فيما بلغتهم - فإن ذلك ظلم عظيم يستحق شديد العقاب مهما تكن صفة من اجترحه كما قال فى سورة الأنعام : « فَتَطْرُدُهُمْ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ » .

( أفلا تذكرون ) أى أفلا تتفكرون فيما تقولون ، وهو ظاهر الخطأ لأنهم فتنتها عنه ؟ ، فإن لهم رباً ينصرهم وينتقم لهم .

( ولا أقول لكم عندى خزائن الله ) أى ولا أقول لكم بادعئى للنبوة والرسالة إن عندى خزائن رزق الله : ( أنواع رزقه التى يحتاج إليها عباده للإفناق منها )

أَتَصَرَّفَ فِيهَا بِغَيْرِ وَسَائِلِ الْأَسْبَابِ الْمُسَخَّرَةِ لِسَائِرِ النَّاسِ ، فَأَتَّفَقَ عَلَى نَفْسِي وَعَلَى مَنْ تَبَعْنِي بِالتَّصَرُّفِ فِيهَا بِخَوَارِقِ الْعَادَاتِ ، بَلْ أَنَا وَغَيْرِي فِي الْكَسْبِ سَوَاءٌ ، إِذْ ذَلِكَ لَيْسَ مِنْ مَوْضُوعِ الرِّسَالَةِ وَلَا مِنْ خَصَائِصِ النَّبِيِّ ، وَلَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَاتَّبَعَ النَّاسُ الرِّسْلَ لِأَجْلِهَا . بَلِ الْغَايَةُ مِنْ بَعَثِ الرِّسْلِ تَزْكِيَةُ الْأَنْفُسِ بِمَعْرِفَةِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ ، وَتَأْهِيلُهَا لِمُثَوِّبَتِهِ فِي دَارِ كَرَامَتِهِ ، وَرِضَاهُ عَنْهَا يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ .

( وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ) فَلَا أُمْتَازُ عَنْ سَائِرِ الْبَشَرِ بِعِلْمٍ مَا لَا يَصِلُ إِلَيْهِ عَلَيْهِمُ الْكَسْبِيُّ مِنْ مَصَالِحِهِمْ وَمَنَافِعِهِمْ وَمُضَارِهِمْ فِي مَعَايِشِهِمْ وَكَسْبِهِمْ ، فَأَخْبَرْتُهَا أَتْبَاعِي لِيَفْضُلُوا عَلَيْكُمْ ، وَمَنْ ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهِ أَنْ يَقُولَ لِقَوْمِهِ : « قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْبَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ » .

( وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ) مِنَ الْمَلَائِكَةِ أُرْسِلْتُ إِلَيْكُمْ فَأَكُونُ كَاذِبًا فِيهَا أَدْعَى ، بَلْ أَنَا بَشَرٌ مِثْلَكُمْ أَمَرْتُ بِدَعَائِكُمْ إِلَى اللَّهِ وَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ .  
وَفِي هَذَا دَخُضٌ لَشَبَهَتِهِمْ ، إِذْ زَعَمُوا أَنَّ الرِّسُولَ مِنَ اللَّهِ إِلَى الْبَشَرِ يَجِبُ أَنْ يَفْضُلَهُمْ وَيُمْتَازَ عَنْهُمْ ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى ذَلِكَ إِلَّا بِأَنْ يَكُونَ مَلَكًا يَعْلَمُ مَا لَا يَعْلَمُهُ الْبَشَرُ ، وَيَقْدِرُ عَلَى مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ الْبَشَرُ .

( وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا ) أَيْ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ اتَّبَعُونِي وَأَمَّنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ، وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيْهِمْ نَظْرَةَ اسْتِصْفَارٍ وَاحْتِقَارٍ فَتَزْدَرِيهِمْ أَعْيُنُكُمْ لِفَقْرِهِمْ وَوَرِثَاةِ حَالِهِمْ : لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا وَهُوَ مَا وَعَدُوهُ عَلَى الْإِيمَانِ وَالْهُدَى مِنْ سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

( اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ ) أَيْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي صُدُورِهِمْ وَبِمَا آتَاهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ عَلَى بَصِيرَةٍ ، وَمَنْ اتَّبَعَ رِسُولَهُ بِإِخْلَاصٍ وَصَدَقَ سَرِيرَةً ، لَا كَمَا زَعَمَتْ مِنْ اتِّبَاعِهِمْ إِيَّايَ بَادِيَ الرَّأْيِ بَلَا بَصِيرَةٍ وَلَا عِلْمٍ .

( إِنِّي إِذَا لَمَنِ الظَّالِمِينَ ) أَيْ إِنِّي إِذَا قُضِيَتْ عَلَى سَرَائِرِهِمْ بِخِلَافِ مَا أَبَدَتْهُ لِي أَلْسِنَتُهُمْ عَلَى غَيْرِ عِلْمٍ مِنِّي بِمَا فِي نَفُوسِهِمْ أَكُونُ ظَالِمًا لَهُمْ بِهَضْمِ حَقُوقِهِمْ .

قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ ، إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ، هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤)

### تفسير المفردات

أصل الجدل . هو الصراع وإسقاط المرء صاحبه على الجدالة وهى الأرض الصلبة  
ثم استعمل فى الخصامة والمنازعة بما يشغل عن ظهور الحق ووضوح الصواب ، والنصح :  
تحرى الخير والصالح للمنصوح له ، والإخلاص فيه قولاً وعملاً ، والإغواء : الإيقاع  
فى الفى ، وهو الفساد الحسى والمعنوى ، والإجرام : الفعل القبيح الضار الذى يستحق  
فاعله العقاب .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه شبهاتهم فى رفض نبوة نوح عليه السلام وردّ نوح عليهم  
بما فيه مَنَعَ لهم لو كانوا يعقلون ، ذكر هنا مقاتلهم التى تدل على العجز والإفحام ، وأن  
الحيل قد ضاقت عليهم فلم يجدوا للرد سبيلاً ، وفى ذلك إيماء إلى أن الجدل فى تقرير  
أدلة التوحيد والنبوة والمعاد وفى إزالة الشبهات عنها هى وظيفة الأنبياء ، والتقليد والجهل  
والإصرار على الباطل والإنكار والجحود هو دَيْدَنُ الكفار المعاندين .

## الإيضاح

( قالوا يانوح قد جادلنا فأكثر جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين )  
 أى قال قومه له : قد حاجبنا فأكثر جدالنا واستقصيت فيه فلم تدع حجة  
 إلا ذكرتها حتى مللنا وسئمنا ولم يبق لدينا شيء نقوله كما قال فى سورة نوح حكاية عنه :  
 « قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا . فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا » أى  
 فأتنا بما تعدنا من عذاب الله الدينى الذى تخافه علينا وهو الذى أراده بقوله (إني أخاف  
 عليكم عذاب يوم أليم ) إن كنت صادقاً فى دعواك أن الله يعاقبنا على عصياننا فى الدنيا  
 قبل عقاب الآخرة .

( قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين ) أى قال لهم نوح حين استمعوا  
 العذاب : يا قوم إن هذا العذاب بيد الله لا أملكه وهو الذى يأتيكم به إن تعلق  
 مشيئته فى الوقت الذى تقتضيه حكمته ، ولستم بفائتيه هر با منه إن أخره لحكمة يعلمها ،  
 وهو واقع لاحالة متى شاء ، لأنكم فى ملكه وسلطانه ، وقدرته نافذة عليكم .

( ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم )  
 أى إن نصحي لكم لا ينفعكم بمجرد إرادتي له فيما أدعوكم إليه ، بل يتوقف نفعه على  
 إرادة الله تعالى له ، وقد مضت سنته كما دلت عليه التجارب أن النصح إنما يقبله المستعد  
 للرشاد ، ويرفضه من غلب عليه الفى والفساد ، باجترأه أسبابه من غرور بغنى  
 وجاه ، أو باتباع هوى وحب شهوات ، تمنع من طاعة الله تعالى .

والخلاصة — إن معنى إرادة الله إغواءهم اقتضاء سننه فيهم أن يكونوا من الغاوين  
 لاخلقه للغواية فيهم ابتداء من غير عمل منهم ولا كسب لأسبابها ، فإن الحوادث  
 مرتبطة بأسبابها والنتائج متوقفة على مقدماتها .

( هو ربكم وإليه ترجعون ) أى هو مالك أموركم ومدبرها بحسب سننه المطردة

في الدنيا ، ولكل شيء عنده قدر ، ولكل قدر أجل ، وإليه ترجعون في الآخرة فيجازيكم بما كنتم تعملون من خير وشر ، ولا تظلمون نقيرا .

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَائِي وَأَنَا بِرِيءٌ مِّمَّا تَجْعَرُونَ (٣٥) .

### المعنى الجملى

قال مقاتل وغيره : هذه الآية معترضة في قصة نوح حكاية لقول مشركى مكة في تكذيب هذه القصص . وللجمل والآيات المعارضة في القرآن حكم وفوائد ، منها تنبيه الأذهان ومنع السامة وتجديد النشاط بالانتقال من غرض إلى آخر والتشويق إلى سماع بقية الكلام ، ومن المتوقع هنا أن يخطر في بال المشركين حين سماع ما تقدم من هذه القصة أنها مفتراة ، لاستغرابهم هذا السبك في الجدل ، والقوة في الاحتجاج فكان إيراد هذه الآية تجديدًا للرد عليهم وتجديدًا لمشاطهم .

### الإيضاح

( أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ) أى بل أقول مشركو مكة : إن محمداً افترى خبر قوم نوح . فأمره الله أن يجيبهم بقوله :

( قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَائِي ) أى إن كنت افتريته على الله كما تزعمون فما عليكم في ذلك من بأس ، إنما إنم ذلك وعقابه علىّ ، ومن كان يؤمن أن هذا إجمام يعاقب عليه فاعله ، فما الذى يحمله على افتراءه ؟ .

( وأنا برىء مما تجرمون ) أى كما أنى برىء من آثامكم وذنوبكم ، فحكم الله العدل أن يجزى كل امرئ بعمله كما قال : « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » .



وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ  
فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَاصْنَعِ الْفُلَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِينَا  
وَلَا تَخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُخْرَجُونَ (٣٧) وَيَصْنَعُ الْفُلَ وَكَلَّمَا  
مَرًّا عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ، قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ  
مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ  
وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٩) .

### تفسير المفردات

ابتأس : اشتد بؤسه وحزنه ، والفلک : السفينة ، ويطلق على الواحد والجمع ،  
والمراد بالأعين هنا : شدة الحفظ والحراسة ، وسخر منه : استهزأ به ، ويخزيه : يذله  
ويفضحه : ومقيم : أى دائم :

### المعنى الجملى

بعد أن أخبر سبحانه أن نوحاً قد أكثر في حجاجهم وجدالهم ، وأنه كلما ازداد  
في ذلك زادوا عتواً وطغياناً حتى تعجلوا منه العذاب وقالوا له : اثبتنا بما تعدنا إن كنت  
من الصادقين - فتنى على ذلك بذكر ما أياسه من إيمانهم وأعلمه بأن ذلك كالحال الذى  
لا يكون ؛ فالجدال والحجاج معهم عبث ضائع ، فلن يؤمن منهم إلا من قد حصل منه  
إيمان من قبل . فإياك أن تغتم على ما كان منهم من تكذيب في تلك الحقبة الطويلة ،  
فقد حان حينهم وأزف وقت الانتقام منهم .

### الايضاح

( وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا  
يفعلون ) أى وأوحى الله إلى نوح بعد أن استعجل قومه العذاب . ، ودعا عليهم دعوته  
(٣)

التي حكاها الله عنه « رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا » : أنه لن يؤمن أحد منهم فيتبعك على ماتدعوه إليه إلا من قد آمن من قبل فيظل على إيمانه فلا يشتدنّ عليك البؤس والحزن بعد اليوم ، بما كانوا يفعلون في السنين الطوال من العناد والإيذاء والتكذيب لك ولمن آمن معك ، فأريح نفسك بعد الآن من جدالهم ومن إعراضهم واحتقارهم ، فقد آن زمن الانتقام ، وحين العذاب .

( واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ) أى واصنع الفلك الذى سننجيك ومن آمن معك فيه وأنت محروس ومراقب برعايتنا ، أى إننا حافظوك فى كل آن ، فلا يمنعه من حفظنا مانع ، وملهموك ومعلموك بوحينا كيف تصنعه ، فلا يعرضنّ لك خطأ فى صنعه ولا فى وصفه .

ونحو الآية قوله لموسى « وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي » وقوله لحمد صلى الله عليه وسلم « وَاضْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا » .

( ولا تخاطبني فى الذين ظلموا إنهم مغرقون ) أى ولا تراجعنى فى شىء من أمرهم من دفع العذاب عنهم وطلب الرحمة لهم ، فقد حقت عليهم كلمة العذاب وقضى عليهم بالإغراق .

والخلاصة — لا تأخذنك بهم رافة ولا شفقة .

( ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ) أى وشرع يصنع الفلك وكلما مر عليه جماعة من كبراء قومه استهزءوا به وضحكوا منه ، وتنادروا عليه ظننا منهم أنه أصيب بالهوس والجنون .

روى أنهم قالوا له : أتحولت نجارا بعد أن كنت نبيا ، وليس ذلك بالغريب منهم فإنه مامن أحد يسبق أهل عصره بما فوق عقولهم من قول أو فعل إلا سخروا منه قبل أن يكتب له النجاح فيه .

( قال إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم كما تسخرون ) أى قال نوح بحجبا لهم عن سخريتهم ، إن تسخروا منا اليوم وتستجهلونا لرؤيتكم مالا تتصورون له فائدة ، فإننا نسخر منكم كما تسخرون جزاء وفاقا ، نسخر منكم اليوم لجهلكم ، وغدا لما سيحل بكم .  
 ( فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم ) أى فإن كنتم لاتعلمون اليوم فائدة ما نعمل وما له من عاقبة محمودة فسوف تعلمون بعد تمامه من يأتيه عذاب يفضحه ويحلب له العار والخزي فى الدنيا وهو عذاب الفرق ، ويحل عليه عذاب دائم فى الآخرة بعد ذلك ، وكل ما فى الدنيا فهو هين لين بالنسبة إلى ما يكون فى الآخرة لانقضائه وزواله ، وبقاء ذاك ودوامه .

حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ  
 اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ ، وَمَا آمَنَ مَعَهُ  
 إِلَّا قَلِيلٌ (٤٠) وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِاسْمِ اللَّهِ حَمَلَيْهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي  
 لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (٤١) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ، وَنَادَىٰ نُوحٌ  
 ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (٤٢)  
 قَالَ سَأَوْىٰ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ  
 إِلَّا مَنْ رَحِمَ ، وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرِقِينَ (٤٣) وَقِيلَ يَا أَرْضُ  
 ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى  
 الْجُودَىٰ ، وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤) .

### تفسير المفردات

الفور والفوران : الارتفاع القوى ، يقال فى الماء إذا نبع وجرى ، وإذا غلا

وارتفع ، والمراد منه هنا اشتداد غضب الله على أولئك المشركين الظالمين لأنفسهم وللناس ، وحلول وقت انتقامه منهم ، والتنور : ما يحبز فيه الخبز ، انفقت فيه لغة العرب والعجم وأهل بيت الرجل : نساؤه وأولاده وأزواجهم ، ومجريها ومرساها : أى إجراؤها وإرساؤها ، ومعزل : أى مكان عزلة وانفراد ، وآوى : أى ألجأ ، وعصمه : حفظه ، والبلع : ازدداد الطعام والشراب بسرعة ، وغاض الماء غار فى الأرض ونضب ، والجودى : جبل بالموصل .

### المعنى الجملى

هذه الآيات غاية لما ذكر قبلها من الاستعداد لهلاكهم ، ومقابلة السخرية بغير ابتئاس ولا ضجر .

### الايضاح

( حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور ) أى حتى إذا جاء وقت أمرنا بهلاكهم ، ونبع الماء من التنور وارتفع بشدة كما تفور القدر بغليانها ، وكان ذلك علامة لنوح عليه السلام ، والأقرب أن يكون المراد من التنور وجه الأرض ، ويكون المعنى حتى إذا نبع الماء من وجه الأرض .

( قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين ) أى حتى إذا أمرنا قلنا لنوح آتئذ : احمل فى السفينة من كل نوع من أنواع الحيوان زوجين اثنين ذكرا وأنثى ، لتبقى بعد غرق سائر الأحياء فتتناسل ويبقى نوعها على الأرض .

( وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن ) أى واحمل فيها أهل بيتك ذكرانا وإناثا إلا من سبق عليه القول بأنهم من المفرقين بسبب ظلمهم كما قال : ( ولا تخاطبني فى الذين ظلموا إنهم مغرقون ) واحمل من صدقك واتبعك من قومك .

( وما آمن معه إلا قليل ) منهم ، قيل إنهم كانوا ثمانية : نوحا عليه السلام وأهله

وأبناءه الثلاثة وأزواجهم ، ولم يبين الله ورسوله لنا عددهم ، فخصره في عدد معين من قبيل الخدس والتخمين ، كما لم يبين لنا أنواع الحيوان التي حملها ولا كيف حملها وأدخلها السفينة ، وقد فصل ذلك في سفر التكوين .

( وقال اركبوا فيها باسم الله مجريها ومرساها ) أى فحملهم نوح وقال اركبوا فيها باسم الله جريانها وإرساؤها ، فهو الذى يتولى ذلك بحوله وقوته ، وحفظه وعنايته ، وقد يكون المعنى : إن نوحا أمرهم بأن يقولوها كما يقولها على تقدير : اركبوا فيها قائلين باسم الله أى بتسخيره وقدرته مجراها حين تجرى ، ومرساها حين يرسبها ، لاجلنا ولا بقوتنا .

( إن ربى لغفور رحيم ) أى إن ربى لواسع المغفرة لعباده حيث لم يهلكهم بذنوبهم ، بل يهلك الكافرين الظالمين منهم ، رحيم بهم إذ سخر لهم هذه السفينة لنجاة بقية الإنسان والحيوان من هذا الطوفان الذى اقتضته مشيئته .

أخرج الطبرانى وغيره عن الحسن بن على رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أمان لأمتى من الغرق إذا ركبوا الفلك أن يقولوا : باسم الله الملك الرحمن الرحيم ( باسم الله مجريها ) الآية » .

( وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ) أى هى تجرى بهم فى موج يشبه الجبال فى علوه وارتفاعه وامتداده ، ومن كابد ما يحدث فى البحار العظيمة من الأمواج حين ماتهيجها الرياح الشديدة عرف أن المبالغة فى هذا التشبيه غير بعيدة ، فإن السفينة لترى كأنها تهبط فى غور عميق كواد سحيق يرى البحر من جانبيه كجبلين عظيمين يكادان يطبقان عليها ، وبعد هنيهة يرى أنها قد اندفعت إلى أعلى الموج كأنها فى شاق جبل تريد أن تنقض منه ، والملاحون يربطون أنفسهم بالحبال على ظهورها وجوانبها لئلا يجرفهم ما يفيض من الموج عليها .

ثم بين أن نوحا دعتة الشفقة على ابنه فناده كما أشار إلى ذلك بقوله :

( ونادى نوح ابنه وكان فى معزل : يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين )

أى وناداه حين الركوب فى السفينة ، وقبل أن تجرى بهم ، وكان فى مكان منعزل بعيد عن أبيه وإخوته ومن آمن من قومه ، يا بنى اركب معنا الفلك ولا تكن مع الكافرين الذين قضى عليهم بالهلاك .

فردّ ابنه عليه :

( قال سأوى إلى جبل يعصمنى من الماء ) أى قال سأصير إلى جبل أتحصن به من الماء فيحفظنى من الفرق :

فأجابه نوح مبيناً له خطأه :

( قال لاعاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المفرقين ) أى قال نوح لابنه لاشئ يعصم أحدا فى هذا اليوم العاصب من عذاب الله الذى قضاه على الكافرين ، فليس الأمر أمر ماء يتقى بالأسباب العادية ، وإنما هو انتقام من أشرار العباد الذين أشركوا بالله وظلموا أنفسهم وظلموا الناس بطغيانهم فى البلاد ، لكنه يحفظ من رحم ويعصمه ، وقد اختص بهذه الرحمة من حلهم فى السفينة ، وكان الماء قد بدأ يرتفع أثناء الحديث حتى حال بين الولد ووالده فكان من المفرقين الهالكين .

وقد وصف سبحانه هذا الطوفان فى سورة القمر قال : « كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ، فدَعَا رَبَّهُ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ ، ففَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ، وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ، وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْوَاحِ وَدُوسِرٍ ، تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ، وَلَئِنْ تَرَكَنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ، فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ . »

وإنه لمنظر تشيب من هوله الولدان ، ماء ينهمر من السماء انهمارا ، وأرض تتفجر فتفيض ماء نجاجا يصير بحرا متلاطم الأمواج ، تغطت من تحته الأرض بجبالها ووديانها ،

وخفيت من فوقه السماء بكواكبها وشمسها ، وكانت عليه السفينة كما كان عرش الله على الماء في بدء التكوين .

ثم ذكر ما حدث بعد هلاكهم مبينا قدرته تعالى فقال :

( وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء ، وقضى الأمر واستوت على الجوديّ وقيل بعدا للقوم الظالمين ) أى وجاء نداء من الملائكة الأعلى خاطبت به الأرض والسماء : يا أرض ابلعي ماءك الذى عليك والذى تفجر من باطنك ، ويا سماء كفى عن المطر ، فلم يلبث أن غاض الماء امتثالا للأمر ، وقضى الأمر بإهلاك الظالمين واستقرت السفينة راسية على جبل الجودي ، وقيل هلاكا وسحقا للظالمين ، وبعدا لهم من رحمة الله بما كان من ظلمهم وقدم الاستعداد للتوبة والرجوع إلى الله عز وجل .

وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧) قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ ، وَأَمَّمْهُمْ سِنَّمَتُهُمْ ثُمَّ يَمْسَهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٨) تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ، فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩) .

## المعنى الجملى

الآيات الثلاث الأولى تبين أن حكم الله فى خلقه العدلُ بلا محاباة لولى ولا نبى ، وأن الأنبياء قد يجوز عليهم الخطأ فى الاجتهاد ويمدّ ذلك ذنباً بالنظر إلى مقامهم الرفيع ومعرفتهم بربهم ، وذلك ماعرض له نوح عليه السلام من الاجتهاد فى أمر ابنه الذى تخلف عن السفينة فكان من المفرقين ، كما أن فى الآية الأخيرة استدلالاً على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وطلب صبره على أذى قومه .

## الايضاح

(ونادى نوح ربه فقال رب إن ابنى من أهلى ، وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين) أى ونادى نوح ربه إثر ندائه لابنه الذى تخلف عن السفينة ودعاه إليها فلم يستجب ، فقال يارب إن ابنى هذا من أهلى الذى وعدتني بنجاتهم إذ أمرتني بحملهم فى السفينة ، وإن وعدك الحق الذى لاخلف فيه ، وأنت خير الحاكمين بالحق ، كما قلت « وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ » فحكمك يصدر عن كمال العلم والحكمة فلا يعرض له الخطأ ولا الخيف والظلم .

والخلاصة— إن نوحاً كان يريد أن ينجوا ابنه الذى تخلف عن السفينة من الغرق بعد أن دعاه إليها ، ومن البين أن هذا الدعاء لابد أن يكون بعد المحاورة مع ابنه قبل أن يحول بينهما الموج .

( قال يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح ) أى قال تعالى : يانوح إنه ليس من أهلك الذين أمرتك أن تحملهم فى الفلك لإنجائهم ، وقد بين سبحانه سبب ذلك بأنه ذو عمل غير صالح : أى فهو يتنكبّ الصلاح ويلتزم الفساد .



( فلا تسألن ما ليس لك به علم ) أى فلا تسألنى فى شىء ليس لك به علم صحيح ، وقد سئى دعاءه سؤالا ، لأنه تضمن ذكر الوعد بنجاة أهله ، ومارتبه عليه من طلب نجاة ولده .

وفى الآية إيماء إلى أنه لا يجوز الدعاء بطلب ما هو مخالف لسنن الله فى خلقه بإرادة قلب نظام السكون لأجل الداعى ، ولا بطلب ما هو محرم شرعا ، وإنما يجوز الدعاء بتسخير الأسباب والتوفيق فيها والهداية إلى العلم بالمجهول من السنن والنظام ، لنكث من عمل الخير ، ونزید من عمل البر والإحسان .

( إني أعظك أن تكون من الجاهلين ) أى إني أنهاك أن تكون من زمرة من يجهلون ، فيسألونه تعالى أن يبطل حكمته وتقديره فى خلقه ، إجابة لشهواتهم وأهوائهم فى أنفسهم أو أهليهم أو محبيهم .

وفى ذلك دليل على أن من أكبر الجهالات أن نسأل بعض الصالحين والأولياء مانهى الله عنه نبيا من أولى العزم من رسله أن يسأله إياه ، فإن ذلك يقضى بأن الله يعطيهم ما لم يعط مثله لرسله .

ثم ذكر طلب نوح المغفرة من ربه على ما فرط منه من السؤال فقال حاكيا عنه :  
( قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم وإلا تغفر لى وترحنى أكن من الخاسرين ) أى قال نوح رب إني ألتجئ إليك وأحتمى بك من أن أسألك بعد الآن شيئا لا أعلم أن حصوله مقتضى الحكمة ، وإن لم تغفر لى ذنب هذا السؤال الذى سؤلته لى الرحمة الأبوية وطمعى فى الرحمة الربانية ، وترحنى بقبول توبتى برحمتك التى وسعت كل شىء - أكن من الخاسرين فيما حاولته من الرجح بنجاة أولادى كلهم وسعادتهم بطاعتك وأنت أعلم بهم منى .

والعبرة فى الآية من وجوه :

(١) إن مأسأله نوح لابنه لم يكن معصية لله تعالى خالف فيها أمره وأنهيه ، وإنما

كان خطأ في اجتهد بنية صالحة ، وعدّ هذا ذنباً ، لأنه ما كان ينبغي لمثله من أرباب العلم الصحيح اللائق بمنزلته من ربه ، ومثل هذا الاجتهاد لم يعصم منه الأنبياء ، فهم يقومون فيه أحياناً ليشعروا بجاحتهم إلى تأديب ربهم وتكميله إياهم حيناً بعد حين .

(٢) إنه لا علاقة للصالح بالورثة والأنساب ، بل يختلف ذلك باختلاف استعداد الأفراد وما يحيط بهم من البيئة والآراء والمعتقدات ، ولو كان للورثة تأثير كبير لكان جميع أولاد آدم سواء ، ولكان سلائل أبناء نوح المؤمنين الذين نجوا معه في السفينة كلهم مؤمنين .

(٣) إنه تعالى يجزى الناس في الدنيا والآخرة بإيمانهم وأعمالهم ، لا بأنسائهم ، ولا يحابي أحداً منهم لأجل الآباء والأجداد وإن كانوا من الأنبياء والمرسلين .

(٤) إن من يغترّ بنسبه ولا يعمل ما يرضى ربه ، ويزعم أنه أفضل من العلماء العاملين والأولياء الصالحين ، فهو جاهل بكتاب ربه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

( قيل يأنوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب ألیم ) أى قال الذى بيده ملكوت كل شئ . ومدبر أمر العالم كله لنوح ، بعد أن انتهى الطوفان ، وأقلعت السماء عن المطر ، وابتلعت الأرض ماءها وصارت السكنى على الأرض والعمل عليها سهلاً ممكناً : يأنوح اهبط من الجودى الذى استوت عليه السفينة ، ممتعاً بسلام وتحيّة منا كما قال تعالى « سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ » وبركات في العايش والأرزاق تفيض عليك وعلى من معك في السفينة وعلى ذريات يتناسلون منهم ويتفرقون في الأرض فيكونون أمماً مستقلاً بعضها من بعض ، ومنهم أمم آخرون من بعدهم سنمتعهم في الدنيا بالأرزاق والبركات ، ولا يصيبهم لطف من ربهم ورحمة منه كما يُصيب المؤمنين ، فإن الشيطان سيغويهم ويزين لهم الشرك والظلم والبغى ، ثم يمسهم العذاب الأليم في الدنيا والآخرة ، لأنهم لا يحافظون

على السلام ، بل يبنى بعضهم على بعض لتفرقهم واختلافهم فى هداية الدين التى بعث بها المرسلون ، ويكون جزاؤهم فى الآخرة النار وبئس القرار .

ثم ذكر لنبية صلى الله عليه وسلم أن هذا قصص من عالم الغيب لا يعرفه هو ولا قومه من قبل فقال: (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) أى هذا القصص الذى قصصته عليك من خبر نوح وقومه من أخبار الغيب التى لم تشهدا حتى تعلمها ، نوحيها إليك نحن فنعرفكها تفصيلا ، وما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل الوحي الذى نزل مبينا لها ، وربما كان يعلمها هو وقومه على سبيل الإجمال .

( فاصبر إن العاقبة للمتقين ) أى فاصبر على القيام بأمر الله وتبليغ رسالته وماتلق من قومك من أذى كما صبر نوح على قومه ، فإن سنة الله فى رسله وأقوامهم أن تكون العاقبة بالفوز والنجاة للمتقين الذين يجتنبون المعاصى ويعملون الطاعات ، فأنتم الفائزون المفلحون ، والمصرون على عداوتكم هم الخاسرون الهالكون .

## تتمة لقصة نوح عليه السلام

هل كان الطوفان عامًّا أو خاصًا ؟

سئل الأستاذ الإمام محمد عبده في ذلك ؛ فأجاب بما يلي :

ليس في القرآن نص قاطع على عموم الطوفان ولا على عموم رسالة نوح عليه السلام ، وما ورد من الأحاديث على فرض صحة سنده فهو آحاد لا يوجب اليقين ، والمطلوب في تقرير مثل هذه الحقائق هو اليقين لا الظن إذا عدّ اعتقادها من عقائد الدين .

وأما المؤرخ ومريد الاطلاع فله أن يحصل من الظن ما ترجحه عنده ثقته بالراوى أو المؤرخ أو صاحب رأى ، وما يذكره المؤرخون والمفسرون في هذه المسألة لا يخرج عن حد الثقة بالرواية أو عدم الثقة بها ، ولا تتخذ دليلاً قطعياً على معتقد ديني . من أجل هذا كانت هذه المسألة موضوع نزاع بين أهل الأديان وأهل النظر في طبقات الأرض ، وموضوع خلاف بين مؤرخي الأمم .

فأهل الكتاب وعلماء الأمة الإسلامية على أن الطوفان كان عاماً لكل الأرض ، ووافقهم على ذلك كثير من أهل النظر ، واحتجوا على رأيهم بوجود بعض الأصداف والأسماك المتحجرة في أعالي الجبال ، لأن هذه الأشياء مما لا تتكون إلا في البحر ، فظهورها في ربوس الجبال دليل على أن الماء صعد إليها مرة من المرات ، ولن يكون ذلك حتى يكون قد عم الأرض .

ويزعم غالب أهل النظر من المتأخرين أن الطوفان لم يكن عامًّا ، ولهم على ذلك شواهد يطول شرحها ، غير أنه لا يجوز لمسلم أن ينكر قضية أن الطوفان كان عاماً لمجرد احتمال التأويل في آيات الكتاب العزيز ، بل على كل من يعتقد بالدين ألا ينفي شيئاً مما يدل عليه ظاهر الآيات والأحاديث التي صح سندها وينصرف عنها إلى التأويل إلا بدليل عتلى يقطع بأن الظاهر غير مراد ، والوصول إلى ذلك في مثل هذه المسألة يحتاج

إلى بحث طويل وعناء شديد . وعلم غزير في طبقات الأرض وما تحتوى عليه ، وذلك يتوقف على علوم شتى عقلية ونقلية ، ومن هذى برأيه بدون علم يقينى فهو مجازف لا يسمع له قول ، ولا يسمح له ببث جهالاته ، والله ورسوله أعلم اهتصرف .  
 وخلاصة هذا — إن ظواهر القرآن والأحاديث تدل على أن الطوفان كان عامًا شاملًا لقوم نوح الذين لم يكن فى الأرض غيرهم فيجب اعتقاده ، ولكنه لا يقتضى أن يكون عاما للأرض ، إذ لا دليل على أنهم كانوا يملئون الأرض ، وكذلك وجود الأصداف والحيوانات البحرية فى قُفْن الجبال لا يدل على أنها من أثر ذلك الطوفان ، بل الأقرب أنه كان من أثر تكون الجبال وغيرها من اليابسة فى الماء ، فإن صعود الماء إلى الجبال أياما معدودة لا يكفي لحدوث ما ذكر فيها .

ولما كانت هذه المسألة التاريخية ليست من مقاصد الدين لم يبينها بنص قطعى ، ومن ثم نقول إنه ظاهر النصوص ولا نتخذة عقيدة دينية قطعية ، فإن أثبت علم طبقات الأرض ( الجيولوجيا ) خلافه فلا يضيرنا ، لأنه لا ينقض نصًا قطعيًا عندنا .

## حادثة الطوفان

فى القرآن والتوراة والتاريخ القديم

ذكرنا فيما سلف أن أحداث التاريخ وضبط وقائعه وأزممنتها وأمكنتها ليس من مقاصد القرآن ، وأن ما فيه من قصص الرسل مع أقوامهم فإنما هو بيان لسنة الله فيهم . وذكرنا أيضا أن قصة نوح عليه السلام جاءت فى عدة سور فى كل سورة منها ما ليس فى سائرهما ، ولم يذكر من حادثة الطوفان إلا ما فيه العبرة والموعظة .

وجاءت هذه القصة فى سفر التكوين فى أربعة فصول ذكر فى أولها سبب الطوفان وهو فى جملة على نحو ما جاء فى القرآن الكريم إلا أن الأسلوب على نحو أساليب التوراة ، وذكر فى الرابع منها رجوع المياه من الأرض بالتدريج واستقرار الفلك على جبل أراط ثم خروج نوح ومن معه من السفينة .

وقد ورد في تواريخ أكثر الأمم القديمة ذكر الطوفان ، منها ماهو موافق لما في سفر التكوين ، ومنها ماهو مخالف له ؛ فروى اليونان خبرا عن الطوفان أورده أفلاطون قال : إن كهنة المصريين قالوا لسولون ( الحكيم اليوناني ) إن السماء أرسلت طوفانا غير وجه الأرض ، ورؤى عن قدماء الفرس طوفان أغرق الله به الأرض بما انتشر فيها من الفساد والشر بفعل ( اهريمان ) إله الشر ، وقالوا إن هذا الطوفان فار أولا من تنور العجوز ( زول كوفه ) إذ كانت تحبز خبزها فيه ، ولكن الجوس أنكروا عموم الطوفان وقالوا إنه كان خاصا بإقليم العراق وانتهى إلى حدود كردستان .

### عمر نوح عليه السلام

جاء في الكتاب الكريم في سورة النكبت : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ » . وجاء في سفر التكوين نحو من هذا ، وقد اشتبه الأمر على الناس في أزمنة مختلفة حتى زعم بعضهم أن السنة عند المتقدمين أقل من السنة عند أهل القرون المعروفة بعد تدوين التاريخ ، ولا دليل على هذا .

والذى يظهر أن أعمار آدم وذريته إلى ما قبل الطوفان أو قبل ما كشف من آثار التاريخ لاتقاس بما عرف بعد ذلك ، لأن معيشة الإنسان الفطرية كانت أسلم للأبدان وأقل توليدا للأمراض : وقول الله هو الحق ويجب الإيمان به على كل حال ، قال الشاعر :

نجيت يارب نوحا واستجبت له      في فلكٍ ماخرٍ في اليمّ مشحونا  
وعاش يدعو بآيات مبيّنة      في قومه ألف عام غير خمسينا

### قصة هود عليه السلام

وإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَنْتُمْ إِلَافُ مَفْتَرُونَ (٥٠) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنِّي

أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا  
رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى  
قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢)

### المعنى الجملى

هذا القصص ذكر في سورة الأعراف بأسلوب ونظم يخالف ما هنا ، وفي كل منهما  
من العظة والعبرة ما ليس في الآخر ، وسيأتى في السور التالية بسياق آخر .  
وقد جاء في بعض الروايات أن هودا أول من تكلم بالعربية ، فهو أول رسول عربى  
من ذرية نوح ، وآخر رسول هو محمد صلى الله عليه وسلم وهو عربى أيضا .

### الايضاح

( و إلى عاد أخام هودا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إن أتم  
إلا مفترون ) أى وأرسلنا إلى عاد الأولى أخام في النسب والوطن هودا فقال لهم :  
يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره فلا تعبدوا من دونه وثناً ولا صنما ، فما أتم  
في عبادتكم غيره من الأنداد والشركاء إلا مفترون الكذب عليه بتسميتكم إياهم شفعاء  
تقر بون بهم أو بقبورهم أو بصورهم وتماثيلهم وترجون النفع وكشف الضر عنكم بإياهم عنده .  
( يا قوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجرى إلا على الذى فطرني أفلا تعقلون ) أى  
يا قوم لا أسألكم على ما أدعوكم إليه من إخلاص العبادة لله والبراءة من الأوثان أجرا  
فتهمونى بأنى أريد المنفعة لنفسى ، ما ثوابى الذى أرجوه على تبليغى إياكم إلا على الله  
الذى خلقنى على الفطرة السليمة مبرأ من هذه البدع الوثنية التى ابتدئها قوم نوح حين  
صنعوا التماثيل لحفظ ذكرى الصالحين ، فزيتن لهم الشيطان تعظيم هذه التماثيل فعبدها ،  
أفلا تعقلون ما يقال لكم فتميزوا بين ما يضر وما ينفع ، وإنى لكم ناصح أمين فلا أغشكم  
فيما أدعوكم إليه .

(وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم) السماء هنا : المطر ، والمدرار : الكثير الدرور ، وأصله في كثرة درّ اللين ، يقال درّت الشاة تدّرّ فهي دار : أى كثر فيض لبنها ، أى ياقوم استغفروا ربكم من الشرك ثم أخلصوا له التوبة ، يرسل عليكم المطر متتابعاً من غير ضرر (وقد كانوا أصحاب زروع وبساتين وعمار) ويزدكم عزّاً إلى عزكم وقد كانوا يهتمون بذلك ويفخرون على الناس ، وقد بسط الله لهم الأجسام وأعطوا القوة فيها كما قال تعالى : « فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ؟ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ . فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ » .

(ولا تقولوا مجرمين) أى ولا تعرضوا عما دعوتكم إليه مما ربما كان سبباً في نعيم العيش وسعة الرزق وزيادة القوة ، وأنتم مصرون على ما أنتم عليه من الإجرام .

قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ، وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نُنْكَرُكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ، قَالَ إِنْى أَشْهَدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنى بَرىءٌ مِمَّا تَشْرِكُونَ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تَنْظِرُونَ (٥٥) إِنى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّى عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أَرْسَلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ، وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ (٥٧)



## المعنى الجملى

بعد أن ذكر تبليغ هود عليه السلام قومه دعوة ربه ، ذكر هنا ردّ قومه لتلك الدعوة في جحودهم للبينة ، ثم إنذاره لهم .

## الايضاح

( قالوا يا هود ماجئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين )  
أى قالوا يا هود : ماجئتنا بحجة واضحة تدل على صحة دعواك أنك مرسل من عند الله .  
وقد قالوا ذلك عنادا منهم وجحودا للحق ، وما نحن بتاركى عبادة آلهتنا بسبب قولك  
الذى لا بينة عليه ، وما نحن بمصدقين ماجئت به .  
ثم بالغوا في الردّ وقالوا :

( إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ) أى لانجد من قول نقوله فيك إلا  
أن بعض آلهتنا أصابك بمسّ من جنون أو خبيل لإنكارك لها وصدك إيانا عن عبادتها .  
والخلاصة — إن ما نقوله لا يصدر إلا عن أصيب بشيء اقتضى خروجه عن  
قانون العقل ، فلا يعمدّ به لأنه من قبيل الخرافات والهذيان التى لاتصدر إلا عن  
الجانين فكيف نؤمن بك ؟ .

والخلاصة — إنهم ترقوا في حجاجهم من سبى إلى أسوأ ، إذ قالوا أولا ماجئتنا  
بالبينة : ثم نفوا تصديقهم له مع كونه مما يقبل التصديق ، ثم نفوا عنه تلك المرتبة أيضا .  
ثم ذكر رده عليهم على طريق الحكاية .

( قال إني أشهد الله واشهدوا أنى رىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعا  
ثم لاتنظرون . إني توكلت على الله رىء وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، إن  
ربى على صراط مستقيم ) .

هذا جواب منه عن مقالاتهم وهو يتضمن جملة أمور :

(١) البراءة من إشراكهم الذى اقترفوه ولا حقيقة له .

(٢) إلهاد الله على ذلك ثقة منه بأنه على بينة من ربه .

(٣) إلهادهم أيضا على ذلك إعلاما منه بعدم مبالاته بهم وبما يزعمون من قدرة شركائهم على إيذائه وضرره :

(٤) طلبه منهم أن يجتمعوا كلهم على السكيد له والإيقاع به بلا إهمال ولا تأخير إن استطاعوا .

وفي هذا دليل واضح على أنه لا يخافهم ولا يخاف آلهتهم ، وقد صدرت مثل هذه المقالة عن نوح عليه السلام إذ قال « فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غِنَةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ » كما لقن الله نبيه مثل هذا بقوله « قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ » .

(٥) عدم الخوف منهم ومن آلهتهم ، إذ وكل أمر حفظه وخذلانهم إلى ربه وربهم ، ومالك أمره وأمرهم ، المتصرف في كل مادب على وجه الأرض والمسخر له وهو سبحانه مطلع على أمور العباد ، مجاز لهم بالثواب والعقاب ، كافٍ لمن اعتصم به ، وهو لا يسلط أهل الباطل من أعدائه على أهل الحق من رسله ولا يفوته ظالم .

( فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ) أى فإن استمررتم على ما أنتم عليه من التولى والإعراض وأبيتم إلا تكذبي ، فقد أبلغتكم رسالة ربي التى أرسلنى بها إليكم ، وليس على غير البلاغ وقد لزمتمكم الحجة وحقت عليكم كلمة العذاب .

( ويستخلف ربي قوما غيركم ) أى إن الله يهلككم ويستخلف فى دياركم وأموالكم قوما آخرين .

( ولا تضرونه شيئا ) بتوليكم عن الإيمان ، فإنه غنى عنكم وعن إيمانكم ، وهو بمعنى قوله « إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ، وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ » .

( إن ربي على كل شيء حفيظ ) أى إن ربي رقيب على كل شيء قائم بالحفظ

عليه على ما اقتضته سننه وتعلقت به إرادته ، ومن ذلك أنه ينصر رسله ويخذل أعداءهم  
إذا أصروا على الكفر بعد قيام الحجة عليهم .

وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَاهُمْ هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ  
مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨) وَتِلْكَ آيَاتُ جَعَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ  
وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَمَنَّةً  
وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ، أَلَا بُعْدًا لِعَادِ قَوْمِ  
هُودٍ (٦٠) .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه إصرار قوم هود على العناد والعقوّ وتكذيب هود فيما جاء  
به من الآيات - ذكر هنا عاقبة أمره وأمرهم ، وأنه تعالى أصابه برحمة من لدنه ، وأنزل  
بهم العذاب الغليظ ، كفاء كفرهم بآياته وعصيان رسله .

### الايضاح

( ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ  
أى ولما نزل عذابنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة من لدنا وميزناهم عن الكافرين  
فيما نزل بهم من ذلك العذاب الغليظ ، وهو الريح العقيم التى لا تذر من شىء أنت عليه  
إلا جعلته كالرميم ، كما فصل ذلك فى سورة القمر بقوله : « إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا  
صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ، تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ » .

ثم ذكر سبب منازل بهم من البلاء فقال :

( وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد )  
أى وقد أحلنا بهم نعمتنا ، لأنهم جحدوا بآيات ربهم وحججه ، وعصوا رسله الذين

أرسلهم إليهم للدعاء إلى توحيدِهِ واتباع أمرِهِ ، وهم وإن كانوا قد عصوا رسولا واحدا فإن عصيان واحد منهم عصيان للجميع ، لأنه ما كان إلا لنفي الرسالة نفسها بدعوى أن الرسول لا يكون بشرا .

وقد اتبع سوادهم ودهاؤم كل جبار عنيد من رؤسائهم الطغاة العتاة المستبدين الذين يأتون الحق ولا يذعنون له وإن قام عليه الدليل .

(وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة) أى ولحقت بهم لعنة في هذه الدنيا ، فكان كل من علم بحالهم ومن أدرك آثارهم ، وكل من بلغه الرسل من بعدهم خبرهم يلعنونهم ، وتلجفهم أيضا يوم القيامة حين ما يلعن الأشهاد الظالمين أمثالهم : قال قتادة : تابعت عليهم لعنتان من الله ، لعنة في الدنيا ولعنة في الآخرة .

ثم أكد كفرهم بشهادته عليهم فقال :

(ألا إن عادا كفروا ربهم) أى إن عادا كفروا نعمه عليهم ببحودهم بآياته وتكذيبهم لرسله كبرا وعنادا .

(ألا بعدا لعاد قوم هود) هذا دعاء عليهم بالهلاك والبعد من الرحمة ، وهو تسجيل عليهم باستحقاقه وإعلام بدوامه .

### قصة صالح عليه السلام

وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ، هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُمْ تَوْبُوا إِلَيْهِ ، إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ (٦١) قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا ، أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ (٦٢) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنِهِ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ؟ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٦٣)

## تفسير المفردات

أعمرته الأرض واستعمرته إياها : إذا فوضت إليه عمارتها ، والريب ، الظن والشك  
يقال رابى الشيء يربى : إذا جعلك شاكا ، وغير تحسير : أى غير إيقاع فى الخسران  
باستبدال الشرك بالتوحيد .

## المعنى الجملى

جاء هذا القصص فى بيان دعوة صالح لقومه ثمود وردم لها بعد احتجاجه عليهم ،  
وصالح هو الرسول الثانى من العرب ، ومساكن قبيلته ثمود - الحِجر وهى بين الحجاز  
والشام وسيأتى ذكر قصصهم فى سورة الشعراء والنمل والقمر والحجر وغيرها ، وفى كل  
منها من الموعظة والعبرة ما لا يغنى عنه غيره .

## الايضاح

( وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ) الكلام  
فى هذا الكلام فى نظيره السابق فى تبليغ هود عليهما السلام .

( هو أنشأكم من الأرض ) أى ابتداء خلقكم منها ، فهى المادة الأولى التى خلق  
منها آدم أبو البشر ، ثم خلقكم أنتم من سلالة من طين بالوسائط ، فإن النطفة التى تتحول  
إلى علقة ثم إلى مضغة ، ثم إلى هيكل عظمى يحيط به لحم - أصلها دم . والدم من الغذاء  
وهو إما من نبات الأرض ، وإما من اللحم الذى يرجع إلى النبات بعد طور أو أكثر .  
( واستعمركم فيها ) أى جعلكم عماراً لها فقد كانوا زُرّاعاً وصُنّاعاً وبنائين كما جاء  
فى الآية الأخرى « وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ » .

والخلاصة - إنه هو المنشئ لخلقكم والمبدئ لكم بأسباب العمران والنعيم فى الأرض  
فلا ينبغي أن تعبدوا فيها غيره ، فهو ذو الفضل عليكم ، وشكرانه واجب عليكم بإخلاص  
العبادة له وحده .

( فاستغفروه ثم توبوا إليه ) أى فاسألوه أن يغفر لكم ما تقدم من ذنوبكم بإشراككم به سواء ، وبما اجترحتم من الآثام ، ثم ارجعوا إليه بالتوبة كلما فرط منكم ذنب عسى أن يغفر لكم .

( إن ربي قريب مجيب ) أى قريب من عباده لا يخفى عليه استغفارهم ولا الباعث عليه ومجيب لدعاء من دعاه وسأله إذا كان مؤمنا مخلصا .  
ونحو الآية ما تقدم فى سورة البقرة من قوله « وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ » .  
ثم ذكر ماردوا به عليه .

( قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا ) أى قد كنت عندنا موضع الرجاء لمهام أمورنا لما لك من راحة عقل وأصاله رأى ، ولحسبك ونسبك قبل هذه الدعوة التى تطلب بها إلينا أن نبدل ديننا زعما منك أنه باطل ، فالآن قد انقطع رجاؤنا منك ثم ذكروا أسباب انقطاع رجائهم بقولهم :  
١ — ( أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ) أى عجيب منك أن تنهانا عن عبادة ما كان يعبد آباؤنا من قبلنا ، وقد سرنا نحن على نهجهم ولم يذكره أحد علينا ولم يستقبحه ، فكيف تنكره ؟ .

٢ — ( وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب ) أى وإننا لفي شك من دعوتك إلى عبادته تعالى وحده دون أن نتوسل إليه بأحد من الشفعاء المقر بين عنده ، ولا أن نعظم ما وضعه آباؤنا لهم من صور وتماثيل تذكّرنا بهم ، فكل هذا يوجب الريب والهمة وسوء الظن وعدم الطمأنينة إلى دعوتك .  
فأجابهم صالح :

( قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة منه ) أى أخبروني عن حالى معكم إن كنت على برهان وبصيرة من ربي مالك أمرى وآتاني من قبّله رحمة خاصة من عنده جعلنى بها نبيا مرسلًا إليكم .

(فمن ينصرف من الله إن عصيته ؟) أى فمن يمنعنى من عذابه إذا أنا كتمت الرسالة ، أو كتمت ما يسوءكم من بطلان عبادة الأصنام والأوثان تقليدا لأبائكم - أى لا أحد يدفع ذلك عنى فى هذه الحال فلا أبالى إذاً بقطع رجائكم فى ولا بما أنتم فيه من شك وريب فى أمرى .

ثم ذكر مآل أمره إذا هو اتبعهم فقال :

(فما تزيدوننى غير تخسير) أى فما تزيدوننى باتقاء سوء ظنكم وارتياكم غير إيقاعى فى الخسران بإيثار ما عندكم على ما عند الله واشتراء رضاكم بسخطه تعالى .

وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٤) فَمَقَرُّوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ (٦٧) كَأَنَّ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ، أَلَا إِنَّ شَعْمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ ، أَلَا بُعْدًا لَشَعْمُودَ (٦٨)

### تفسير المفردات

الآية : المعجزة الدالة على صدق نبوته ، وذروها : أتركوها ، وعقر الناقة بالسيف : قطع قوائمها به أو نحرها ، والتمتع : التلذذ بالمنافع ، والدار : البلد كما يقال ديار بكر : أى بلادهم ، وكذب فلانا حديثنا وكذبه الحديث : أى كذب عليه فيه ، والوعد : خبر موقوت كأن الواعد قال للموعود إننى أفى به فى وقته ، فإن وفى فقد صدق ولم يكذبه ، وأصل الأخذ : التناول باليد ، ثم استعمل فى الأشياء المعنوية كأخذ الميثاق

والعهد وفي الإهلاك ، والصيحة : الصوت الشديد والمراد بها هنا صيحة الصاعقة ،  
وجائمين : أى ساقطين على وجوههم مصعوقين لم ينتج منهم أحد ، وغنى بالمكان :  
أقام فيه .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن قومه قالوا له إننا لنفى شك مما تدعوننا وسألوه الآية على ما دعاهم  
إليه - ذكر هنا أنه قال لهم إن آيته على رسالته هى الناقة ، وأن من يمسه بسوء يصيبه  
عذاب أليم .

### الايضاح

( ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية ) أى يا قومى هذه ناقة ممتازة عن سائر الإبل  
بما ترون من أكلها وشربها وجميع شئونها ، قد جعلها الله لكم آية بينة منه تدل على  
صدق وعلى إهلاككم إن أنتم خالفتم أمره فيها .  
( فذروها تأكل فى أرض الله ) أى فاتركوها تأكل مما فى الأرض من المراعى  
وليس عليكم مؤنتها .

( ولا تمسوها بسوء فىأخذكم عذاب قريب ) أى ولا يمسه أحد منكم بأذى  
فىأخذكم عذاب عاجل لا يتأخر عن مسكم إياها بسوء إلا يسيرا .  
ثم ذكر أنهم لم يستمعوا نصحه فقال :

( فمقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ، ذلك وعد غير مكذوب ) أى فكذبوه  
فمقروها فقال لهم صالح : استمتعوا بحياتكم فى دار الدنيا ثلاثة أيام ، وهذا الأجل الذى  
أُجِّلْتُمْ وعد من الله وعدمكم حين انقضائه بالهلاك ونزول العذاب ، لم يكذبكم فيه من  
أعمالكم ذلك .

ثم ذكر وقوع ما أوعدوا به فقال :

( فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ )



أى فلما جاء ثمود عذابنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة خاصة منا ، ونجيناهم من عذاب ذلك اليوم ونكاله باستئصالهم من الوجود ؛ وبما يتبعه من سوء الذكر والطرده من رحمة الله .

ثم بينَّ عظم قدرته على التنكيل بأمثالهم من المشركين فقال :  
( إن ربك هو القوى العزيز ) أى إن ربك أيها الرسول الذى فعل هذا بهم قادر أن يفعل مثل ذلك بقومك إذا أصروا على الجحود ، إذ لا يعجزه شئ ، وهو الغالب على أمره .

ثم ذكر مآل أمرهم وشديد عقابه بهم فقال :  
( وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ) أى فأخذتهم صيحة الصاعقة التى نزلت بهم فأحدثت رجفة فى القلوب وزلزلة فى الأرض وصعقوا بها جميعا فانكبوا على وجوههم لم ينج منهم أحد .

( كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لنمود ) أى كأنهم لسرعة زوالهم وعدم بقاء أحد منهم لم يقيموا فى ديارهم البتة ، وما سبب هذا إلا أن كفروا بآيات ربهم فخذوها ، ألا بعدا وهلاكاً لهم .

### بشارة الملائكة لإبراهيم وامرأته بإسحاق

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا ، قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَى أَنِّي إِلَهُهُمْ لَا أَتَّصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ، قَالُوا لَا تَخَفْ ، إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَفَشَّرْنَاَهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ لُوطٍ إِسْحَاقَ يَمَقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ؟

إِنَّ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ، رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ، إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (٧٣)

### تفسير المفردات

فما لبث : أى ما أبطأ ، وحنيد : أى مشوى بالرضف وهى الحجارة المحمأة ، ولا تصل إليه : أى لا تمتد للتناول ، ونكره وأنكره : ضد عرفه ، وأوجس القلب فزعاً : أحس به ، ولوط : هو ذلك النبي الكريم ، وهو ابن أخى إبراهيم وأول من آمن به ، وبأ وملتنا : أصلها يا ولى : وهى كلمة تقال حين يفجأ الإنسان أمرهم من بليّة أو فجيعة أو فضيحة على جهة التعجب منه أو الاستنكار له أو الشكوى منه ، والبعل : الزوج وجمعه بعولة ، وأمر الله : قدرته وحكمته ، وحيد : أى محمد أفعاله ، ومجيد : أى كثير الخير والإحسان .

### الايضاح

( ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى ) أى ولقد جاءت رسلنا من الملائكة ، واختلفت الرواية فيهم ، فعن عطاء إنهم جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام ، وعن غيره إنهم جبريل وسبعة أملاك معه ، ومثل هذا لا يعلم إلا بتوقيف من الوحي ولم يثبت ، والبشرى : البشارة بالولد لقوله : « فَبَشِّرْهُنَّ أَهْلًا بِإِسْحَاقَ » الآية وقوله فى الذاريات : « وَبَشِّرُوهُ بِنِغْلَامٍ عَلِيمٍ » .

( قالوا سلاما ) أى قالوا : نسلم عليك سلاما .

( قال سلام ) أى قال : عليكم سلام .

( فما لبث أن جاء بمجلى حنيد ) أى فما أبطأ أن جاءهم بمجلى مشوى على الحجارة المحمأة ( وقد اهتدى البشرى إلى شئى اللحم من صيد وغيره على الحجارة المحمأة بحر الشمس قديماً قبل الاهتداء إلى إنضاجه بالنار ) .

وجاء في سورة الذاريات : « فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ . فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ » وفي هذا دليل على أنه كان مشوياً معداً لمن يحىء من الضيوف ، وربما كان قد شوى عند وصولهم بلا إبطاء ولا تريث .

( فلما رأى أيديهم لاتصل إليه نكرم وأوجس منهم خيفة ) أى فلما رأى إبراهيم أيديهم لاتمتد إلى الطعام الذى قدم إليهم نكير ذلك منهم ووجده على غير ما يعهد من الضيوف ( فالعادة قد جرت أن الضيف إذا لم يَطْعَمَ مما قَدَّم إليه ظن أنه لم يحىء بخير وأنه يحدث نفسه بشر ) وأحس في نفسه خوفاً وفزعاً ، حين شعر أنهم ليسوا بشرا وربما كانوا من ملائكة العذاب .

( قالوا لاتخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط ) أى قالوا له حين علموا ما يساور قلبه من الخوف : لاتخف ، فنحن لازلز يد بك سوء ، وإنما أرسلنا إلى قوم لوط لإهلاكم ، وكانت ديارهم قريبة من دياره ، وجاء في سورة الحجر أنه صارحهم بالخوف فطمأنوه وبشروه بغلام عليم ، وكذا في سورة الذاريات .

( وامراته قائمة فضحكت ) أى وكانت امرأة إبراهيم واقفة للخدمة فضحكت سرورا بالأمن من الخوف ، أو تقرب عذاب قوم لوط لكرهاتها لسيرتهم الخبيثة .

( فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ) أى فبشرناها بالتبع لبشارة إبراهيم بإسحاق ، ومن بعد إسحاق يعقوب أى إنه سيكون لإسحاق ولد أيضاً كما قال تعالى : « وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ » :

( قالت يا ويلتا ألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا ؟ إن هذا لشيء عجيب ) أى قالت سارة لما بشرت بإسحاق : كيف ألد وقد بلغت السن التى لا يلد من كان قد بلغها من الرجال والنساء ، وهذا زوجى شيخا كبيرا لا يولد لمثله ، إن هذا الذى بشرتمونا به لشيء عجيب يخالف لسنن الله التى سلكها فى عباده .

وقد جاء في سفر التكوين ( إن إبراهيم كان عمره يومئذ مائة سنة ، وإن زوجه

سارة كانت ابنة تسعين سنة ) ومثلها لا يلد ، بل الغالب أن ينقطع حيض المرأة في سن الخمسين فيبطل استعدادها للحمل والولادة ، على أنها كانت عقيماً كما في سورة الذاريات .  
وربما كانت زوجه سارة علمت من حال زوجها بعد ولادة هاجر لابنه إسماعيل بمدة قليلة أو كثيرة أنه أصبح غير مستعد لمباشرة النساء ، أو كانت تعتقد كما يعتقد أن مثله في تلك السن لا يولد له .

( قالوا أتعجبين من أمر الله ) أى قالوا لها : لا ينبغي لك أن تعجبي من شئ ، يصدر عن أمر الله الذى لا يعجزه شئ ، كما قال : « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » .

والله الخالق للسنن ، والواضع لنظام الأسباب هو الذى أراد أن يستثنى منها واقعة بعينها يحفظها من آياته لحكمة من حكمه أرادها لبعض عباده .

( رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ) أى رحمة الله وبركاته الكثيرة عليكم يا أهل بيت النبوة تتوارث فى نسلكم إلى يوم القيامة ، وما تلك بأول آية لإبراهيم فقد نجاه من نار قومه الظالمين ، وآواه إلى الأرض التى بارك فيها للعالمين .

( إنه حميد مجيد ) أى إنه جل ثناؤه مستحق لجميع الحمد ، حقيق بالخير والإحسان .

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦)

### تفسير المفردات

الروع : ( بالفتح ) الخوف والفرع : ( وبالضم ) النفس ، والحليم : الذى لا يحب للمعاجلة بعقاب ، والأواه : الكثير التأوه مما يسوء ويؤلم ، والمنيب الذى يرجع إلى الله فى كل أمر ، وغير مردود : أى غير مدفوع لا يجادل ولا بشقاعة .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه بعض ما جرى بين إبراهيم والملائكة ، وصل به بعضاً آخر كالتممة له .

## الإيضاح

( فلما ذهب عن إبراهيم الروح وجاءته البشرى بمجادلنا في قوم لوط ) أى فلما سرى عن إبراهيم وانكشف له ما أوجس منه الخيفة ، إذ علم أن هؤلاء الرسل من ملائكة العذاب ، وجاءته البشرى بالولد واتصال النسل أخذ بمجادل رسلنا فيما أرسلناهم به من عقاب قوم لوط ( وجعلت مجادلتهم مجادلة لله لأنها مجادلة في تنفيذ أمره ) وهذه المجادلة قد فصلت في سورة العنكبوت فجاء فيها :

« وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْدِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ . إِنْ أَهْلُهَا كَانُوا ظَالِمِينَ . قَالَ إِنْ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ » .

كما جاءت هذه المجادلة في الفصل الثامن عشر من سفر التكوين من التوراة ففيه : ( إن الرب ظهر لإبراهيم وهو جالس في باب الخيمة ، فظهر له ثلاثة رجال فاستضافهم وأتى لهم بعجل وخبز مَلَّةٍ فأكلوا وبشروه بالولد ، فسمعت امرأته سارة فضحكت وتعجبت لكبرها وانقطاع عادة النساء عنها ، فقال الرب لإبراهيم لماذا ضحكت سارة ، هل يستحيل على الرب شيء ؟ ... وانصرف الرجال ( أى الملائكة ) من هناك وذهبوا نحو سدوم ( قرية قوم لوط ) وإبراهيم لم يزل قائماً أمام الرب فقدم إبراهيم وقال : أفتهلك البار مع الأثيم ؟ عسى أن يكون هناك خمسون باراً في المدينة ، أفتهلك المكان ولا تصفح عنه من أجل الخمسين باراً الذين فيه ؟ فقال الرب إن وجدت في سدوم خمسين باراً فإنى أصفح عن المكان كله من أجلهم ، ثم كله إبراهيم مثل هذا في خمسة وأربعين ثم في أربعين ثم في ثلاثين ثم في عشرين ثم في عشرة ، والرب يعده في كل من هذه

الأعداد بأنه من أجلهم لا يهلك القوم ... وذهب الرب عند ما فرغ من الكلام مع إبراهيم إلى مكانه (هـ).

(إن إبراهيم لحليم أواه منيب) أى إنه جادل الملائكة فى عذاب قوم لوط ، لأنه كان حليماً لا يعجل بالانتقام من المسىء ، كثير التأوه مما يسوء الناس ويؤلمهم ، يرجع إلى الله فى كل أموره .

(يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك ، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود) أى يا إبراهيم أعرض عن الجدال فى أمر قوم لوط والاسترحام لهم ، إنه قد نفذ فيهم القضاء وحق عليهم الكلمة بالهلاك وحلول البأس الذى لا يرد عن القوم المجرمين ، وإنهم آتيهم عذاب لا سبيل إلى دفعه ورده بجدل ولا شفاعة ولاغيرها .

وفى هذه الآية عبرة لمن يتخذ من الله أنداداً من أوليائه ، ويزعم أنهم يتصرفون فى الكون كما يريدون ولا يرد لهم طلب كما قال : « لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ » وفيها أكبر رد عليهم فيما يتخرون به ، فهذا جدّ الأنبياء وأفضلهم بعد محمد صلى الله عليه وسلم وهو إبراهيم نجاه الله عن التعرض لما قضى به فأراد .

### قصة لوط عليه السلام

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَ بِهِمْ وَبِأَنفُسِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ، قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزَوْا فِي ضَيْفِي ، أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ

مَالَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنِّي لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠)

### تفسير المفردات

سوء بهم : أى وقع فيما ساءه وغمه بمجيئهم ، الذرع والذراع : منتهى الطاقة ، يقال مالى به ذرع ولا ذراع : أى مالى به طاقة ، ويقال ضقت بالأمر ذرعا إذا صعب عليك احتماله ، والعصيب : الشديد الأذى ، ويقال هُرِعَ وأُهرِعَ ( بالبناء للمفعول ) : إذا حُجِلَ على الإسراع ، وقال الكسائى لا يكون الإهراع إلا إسراعا مع رِغدة من برد أو غضب أو حُمى أو شهوة ، ولا تخزون : أى لا تمنجلونى ، والضيف يطلق على الواحد والجمع ، والرشيد : ذو الرشد والعقل ، لو أن لى يك قوة : أى على الدفع بنفسى ، أو آوى إلى ركن شديد من أرباب العصبيات القوية الذين يحمون اللاجئين ويحبرون المستعبرين .

### الإيضاح

فى سفر التكوين : إن لوطا عليه السلام ابن هرون أخى إبراهيم صلى الله عليه وسلم وأنه هاجر معه من مسقط رأسهما ( أور الكلدانيين ) فى العراق إلى أرض الكنعانيين وسكن إبراهيم فى أرض كنعان ، ولوط فى سدُوم بالأزْدُن ، ويظن بعض الباحثين أن بحيرة لوط غمر موضعها بعد الخسف ، ويقال إن الباحثين فى العصر الحاضر عثروا على آثارها .

( ولما جاءت رسلنا لوطا سوء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب ) أى ولما جاءت ملائكتنا لوطا ساءه مجيئهم ، وعجز عن احتمال ضيافتهم ، لما كان يتوقعه من اعتداء قومه عليهم كعادتهم ( وقد روى أنهم جاءوه بشكل غلمان حسان الوجوه ) وقال هذا يوم شديد شره ، عظيم بلاؤه .

( وجاءه قومه يهرعون إليه ) أى وجاء لوطا قومه يهرولون كأن سائقا يسوقهم مما بهم من طلب الفاحشة .

( ومن قبل كانوا يعملون السيئات ) أى ومن قبل هذا الحجة كانوا يعملون السيئات الكثيرة التى أفظعها ما أنكرته الفطر البشرية والشرائع الإلهية والوضعيه ، وهو إتيان الرجال شهوة من دون النساء ومجاهرتهم بها فى أنديةهم كما حكى الله عنهم بقوله : « أَفَنُكِّمُ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقَاطِعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ » ( قال يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم ) فزوجهن ، أراد بيناتى بنات قومه لأن النبى فى قومه كالوالد فى عشيرته كما قال ابن عباس ، ويدخل فيهن نساؤهم المدخول بهن وغيرهن من المعدّات للزواج ، ومراده أن الاستمتاع بهن بالزواج أطهر من التلوث برجس اللواط ، فإنه يكبح جماح الشهوة مع الأمن من الفساد .

( فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى ) أى فاحشوا الله واحذروا عقابه فى إتيانكم الفاحشة التى تطلبونها ؛ ولا تذلونى وتمتهنوني بفضيحتى فى ضيوفى ؛ فإن إهانة الضيوف إهانة للمضيف وفضيحة لهم .

( أليس منكم رجل رشيد ) أى أليس منكم رجل ذو رشد وحكمة ينهى من أرادوا ركوب الفاحشة من ضيوفى ، فيحول بينهم وبين ما يريدون .

( قالوا لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق ) أى لقد علمت من قبل أنه ليس لنا - فى بناتك من رغبة فى تزواجهن فتصرفنا بعرضهن علينا عما نريده ، وقد يكون المعنى - لقد علمت الذى لنا فى نساءنا اللواتى تسميهن بناتك من حق الاستمتاع وما نحن عليه . . . فلا ينبغي عرضك إياهن علينا لتصرفنا عما نريده .

( وإنك لتعلم ما نريد ) أى وإنك لتعرف حق المعرفة ما نريد من الاستمتاع بالذكران ، وإننا لا تؤثر عليه شيئا .

والخلاصة - إنهم أجمعوا أمرهم على فعل ما يريدون .



( قال لو أن لي بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد ) أى قال لوط لقومه حين أبوا إلا المضي لما قد جاءوا له من طلب الفاحشة وأيس من أن يستجيبوا له إلى شيء مما عرض عليهم : لو أن لي بكم قوة بأنصار تنصرني عليكم وأعوان تعينني ، أو أنضم إلى عشيرة تجبرني منكم لحلت بينكم وبين ما جئتم تريدونه مني في أضيافي .

قَالُوا يَا لَوُطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرَبَ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا تَكُ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِنْ سَجِيلٍ مَنضُودٍ (٨٢) مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ ، وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣)

### تفسير المفردات

السرى : ( بالضم ) والإسراء في الليل : كالسير في النهار ، والقطع من الليل : الطائفة منه ، والسجيل : الطين المتحجر كما جاء في الآية الأخرى « حجارة من طين » . وقال الراغب : هو حجر وطن مختلط أصله فارسيّ فعرب ، ومنضود : أى وضع بعضه على بعض وأعد لعذابهم ، ومسومة : أى لها سومة ( بالضم ) أو علامة خاصة في علم ربك .

### المعنى الجملى

بعد أن بين عز اسمه ما يدل على أن لوطا كان قلقا على أضيافه مما يوجب الفضيحة لهم ، وذلك قوله : « لو أن لي بكم قوة أو آوى إلى ركن » ذكر هنا أن الرسل بشروه بأن قومه لن يصلوا إلى ما هموا به ، وأن الله مهلكهم ومنجيهم مع أهله من العذاب .

## الإيضاح

(قالوا يا لوط إنا رسل ربك) أى قالت الملائكة للوط بعد أن رأوا شديد الكرب الذى لحقه بسببهم وتمنيه أن يجد قوة تدفعهم عن أضيافه : إنا رسل ربك أرسلنا لإهلاكم وتنجيتك من شرهم .

(لن يصلوا إليك ) ولا إلى ضيفك بمكرهه ، فهوّن عليك الأمر ، وحينئذ طمس الله أعينهم فلم يعودوا يبصرون لوطا ولا من معه كما جاء فى سورة القمر : « وَلَقَدْ رَآوْهُ عَنِ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ » فانقلبوا عميا يتخبطون لا يعرفون الطريق ولا يهتدون إلى بيوتهم وصاروا يقولون : النجاء النجاء فإن فى بيت لوط قوما سحرة . ( فأسر بأهلك بقطع من الليل ) أى فاخرج من هذه القرى أنت وأهلك ببقية من الليل تكفى لتجاوز حدودها ، وجاء فى سورة الذاريات : « فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ » .

(ولا يلتفت منكم أحد) أى ولا ينظر أحد إلى ما وراءه ليجدوا فى السير أولئلا يروا ما ينزل بقومهم من العذاب فيرقوا لهم ، وجاء فى سورة الحجر : « وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ » .

(إلا امرأتك ) فقد كان ضلعها مع القوم وكانت كافرة خائنة .

(إنه مصيبتها ما أصابهم) أى إنه مصيبتها ذلك العذاب الذى أصابهم ومقضى عليها بذلك ، فهو واقع لا بد منه .

ثم علل الإسراء ببقية من الليل فقال :

(إن موعدهم الصبح ) أى موعد عذابهم الصبح ابتداء من طلوع الفجر إلى الشروق كما جاء فى سورة الحجر « فَأَخَذْنَاهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ » .

ثم أكد ما سبق فأجاب عن استعجال لوط لإهلاكم فقال :

(أليس الصبح بقريب) أى أليس موعد الصبح بموعد قريب لم يبق له إلا ليلة واحدة فانج فيها بأهلك .

وحكمة تخصيص هذا الوقت أنهم يكونون مجتمعين في مساكنهم فلا يُفَلتُ منهم أحد .  
( فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها ) أى فلما جاء أمرنا بالعذاب وقضاؤنا فيهم  
بالحلاك قلبنا قراها كلها وخسفنا بها الأرض .

وقد جرت سنة الله أنه إذا أراد خسف أرض في جهة ما أحدث تحتها فراغا بتفاعل  
الأنخرة التي في جوفها فيندكّ الجزء الأعلى وينهدم ويفور إلى أسفل إما عموديا إن كان  
الفراغ بقدر ما انخسف من الأرض وإما مائلا إلى جانب من الجوانب إن كان  
الفراغ تحته أوسع ، وفي بعض هذه الحالات يكون عاليها سافلها ؛ ويرجع بعض علماء  
طبقات الأرض ( الجيولوجيا ) أن قرى قوم لوط خُسِفَ بها تحت الماء المعروف ببحيرة  
لوط أو بحر لوط ، وقد عثر الباحثون على بعض آثارها من عهد قريب .

وقد روى المفسرون في خسفها من الخرافات ما لم يثبت به نقل ولا يقبله عقل ، فقالوا  
إن جبريل عليه السلام قلعها من تخوم الأرض بجناحه وصعد بها إلى غنان السماء حتى  
سمع أهل السماء أصوات الكلاب والدجاج ونهيق الحمير ، ثم قلبها قلبا مستويا فجعل  
عاليها سافلها ، مع أن المشاهدة في هذا العصر أثبتت أن الطائرات المطاردة التي تحلق  
في الجو تصل فقط إلى حيث يخفّ ضغط الهواء وتستحيل الحياة حينئذ ، ومن ثم يضعون  
فيها من أو كسجين الهواء ما يكفي استنشاقه وتنفسه للحياة في طبقات الجو العليا  
ثم يصعدون فيها ؛ وقد أشار الكتاب الكريم إلى ما يكون للتصعيد في جو السماء  
من التأثير في ضيق الصدر وعسر التنفس بقوله : « فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ  
يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا  
يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ » .

( وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود . مسومة عند ربك ) أى وأمطرنا  
عليهم قبل القلب أو في أثناءه حجارة من سجيل : أى من طين متحجر كما جاء  
في سورة الذاريات : « لِرُسُلِ عَلَيْهِمْ حِجَارَةٌ مِنْ طِينٍ » ومثل هذا المطر يحدث

عادة بإرسال الله تعالى ريحا شديدة تحمل بعض الأحجار من المستنقعات أو الأنهار فتلقاها حيث يشاء الله .

وهذا السجيل قد نضد وتراكب بعضه في أثر بعض بحيث يقع طائفة بعد طائفة ، وقد وُضِعَ على تلك الأحجار سُومَة : أى علامة خاصة في علم ربك بحيث لاتصيب غير أهلها .

وقد يكون المعنى : إنه سخرها عليهم وحكمها في إهلاكهم بحيث لا يمنعها شيء ، من قولهم : سوّمت فلانا في الأمر إذا حكمته فيه وخليته وما يريد ، لاتثنى له يد في تصرفه .

ويرى بعض المفسرين أن التسويم كان حسيا بخطوط في ألوانها أو بأمثال الخواتيم عليها أو بأسماء أهلها ، وكل ذلك من أمور الغيب التي لاتثبت إلا بسلطان ونص من خاتم الرسل ، وأنى هو ؟ .

(وما هي من الظالمين ببعيد ) أى وما هذه القرى التي حل بها العذاب بمكان بعيد عنكم أيها المشركون من أهل مكة الظالمون لأنفسهم بتكذيبك والمارة فيما تنذرهم به ، بل هي قريبة منكم على طريقكم في رحلة الصيف إلى الشام كما قال في سورة الصافات : « وَإِنَّكُمْ لَتَمَرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفْلًا تَعْمَلُونَ » أى وإنكم لتمرّون على آثارهم ومنازلهم في أسفاركم وقت النهار وبالليل ، أفلا تعتبرون بما حل بهم .

وفي هذا عبرة للظالمين في كل زمان وإن اختلفت العذاب باختلاف الأحوال وأنواع الظلم كثرة وقلة ومقدار أثره في الأمة من إفساد عام أو خاص .

### قصة شعيب عليه السلام

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ، إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ

عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (٨٤) وَيَأْقُومِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ  
بِالْقِسْطِ ، وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ، وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ  
مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ  
بِحَفِيفٍ (٨٦)

### المعنى الجملى

تقدم ذكر قصة شعيب في سورة الأعراف ، وذكرت هنا مرة أخرى ، وقد جاء  
في كل موضع منهما من العظات والأحكام والحكم ما ليس في الآخرة مع الأحكام  
في السبك وحسن الرصف ، والسلامة من التعارض والاختلاف والتفاوت .

### الايضاح

( وإلى مدين أخاهم شعيباً ) أى وأرسلنا إلى مدين أخاهم شعيباً .  
( قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ) أى فلما أتاهم قال يا قوم اعبدوا الله  
وحده ولا تعبدوا معه غيره ، فما لكم من إله إلا هو .  
وقد جرت سنة الأنبياء أن يبدءوا بالدعوة إلى التوحيد ، لأنه جذر شجرة الإيمان ،  
ثم يتبعونه فالأهم بالأهم فيما يرون لدى أقوامهم ، ومن ثنى بالنهى عن نقص الكيل  
والميزان ، لأن أهل مدين اعتادوا ذلك فقال :  
( ولا تنقصوا المكيال والميزان ) أى ولا تنقصوا الناس حقوقهم في مكيالكم وميزانكم  
كما هي عادتكم ، وقد جاء مثل هذا النهى في قوله :  
« وَيَلِّ لِلْطَّافَيْنِ . الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ . وَإِذَا كَالُواهُمْ  
أَوْزَنُواهُمْ يَخْسِرُونَ » أى ينقصون .

( إني أراكم بخير ) أى إني أراكم بثروة وسعة في الرزق تغنيكم عن الدناءة في بحس  
حقوق الناس وأكل أموالهم بالباطل مما تنقصون لهم من المبيع في مكيل أو موزون

وكانوا تجارا مطففين إذا اکتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم ينقصون المكيال والميزان .

إلا أن في هذا كفرانا لنعمة الله عليكم ، إذ كان يجب عليكم شكرانها بالزيادة على سبيل الصدقة والإحسان .

( وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط ) أى وإني أخشى عليكم يوما يحيط بكم عذابه إذا أنتم أصررتم على شرككم بالله بعبادة غيره ، وكفرتم بنعمه بنقص المكيال والميزان .

وهذا العذاب إما في الدنيا بعذاب الاستئصال ، وإما في يوم القيامة .  
( وياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ) أى وياقوم أتموها بالعدل بلا زيادة ولا نقصان .

وقد أمرهم بالواجب بعد أن نهاهم عن ضده لتأكيده وللتنبية إلى كون عدم التعمد للنقص لا يكفي لتحرى الحق ، بل يجب معه تحرى الإيفاء بالعدل والسوية من غير زيادة ولا نقص ، وإن كان التيقن من ذلك لا يكون إلا بزيادة طفيفة ، وتعمدتها في الكيل والوزن للناس سخاء وفضيلة يمدح فاعلها عليها ، وفي الاكتيال أو الوزن عليهم طمع فهو رذيلة مذمومة .

( ولا تبخسوا الناس أشياءهم ) البخس : النقص في كل الأشياء ، يقال بخسه ماله وبخسه علمه وفضله ، أى لا تظلموا الناس أشياءهم ، وذلك يشمل ما للأفراد وما للجماعات من مكيل وموزون ومعدود ومحدود بحقوق مادية أو معنوية .

( ولا تعثوا في الأرض مفسدين ) الإفساد تعطيل يشمل مصالح الدنيا وأمور الدين وأخلاق النفس وصفاتها ، وكل ذلك فاش في عصرنا أى لا تفسدوا في الأرض وأنتم تعتمدون الإفساد ، وإنما اشترط في النهى تعمد الإفساد ، لأن بعض ماهو إفساد في الظاهر قد يراد به الإصلاح أو دفع أخف الضررين كما يقع في الحرب من قطع

الأشجار أو فتح سدود الأنهار أو إحراق بعض الغابات ، وكما فعل الخضر عليه السلام  
للسفينة التى كانت لمساكين يعملون فى البحر ، لأجل منع الملك الظالم الذى وراءهم من  
أخذها إذا أعجبه .

وهذا نهى عام يشمل غير ماسبق ، كقطع الطرق ، وتهديد الأمن ، وقطع الشجر ،  
وقتل الحيوان ، ونحو ذلك .

(بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين) أى مايبقى لكم بعد إيفاء السكيل والميزان  
من الربح الحلال خير لكم مما تأخذونه بالتطفيف ونحوه من الحرام ، إن كنتم مؤمنين  
به حق الإيمان ، فالإيمان يطهر النفس من رذيلة الطمع ويحللها بفضيلة السخاء والكرم .  
(وما أنا عليكم بحفيظ) أى وما أنا بالذى أستطيع أن أحفظكم من القبائح ، وإنما  
أنا ناصح مبلغ ، وقد أعذرت إذ أنذرت ، ولم آل جهداً فى ذلك .

قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ  
تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ؟ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) قَالَ يَا قَوْمِ  
أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّ وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ  
أَنْ أَخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ، إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ  
وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨) وَيَا قَوْمِ  
لَا يَحْزَنْكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ  
هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ، وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (٨٩) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ  
ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠)

## تفسير المفردات

الحليم : ذو الأناة والتروى الذى لا يتعجل بأمر قبل الثقة من فائدته ، والرشيد : الذى لا يأمر إلا بما استبان له من الخير والرشد ، والخالفة : أن يأخذ كل واحد طريقا غير طريق الآخر فى قوله أو فعله أو حاله ، يقال خالفنى فلان إلى كذا إذا قصده وأنت مولى عنه ، وخالفنى عنه إذا ولى عنه وأنت قاصد له ، وأتاب إلى الله : رجع إليه ، وجرم الذنب أو المال : كسبه ، ورحيم : عظيم الرحمة للمستغفرين ، ودود : كثير اللطف والإحسان إليهم .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر أمر شعيب لقومه بعبادة الله وحده وعدم النقص فى الكيل والميزان ذكر هنا ردهم على كلا الأمرين ، فردوا على الأول بأنهم إنما ساروا على منهج آبائهم وأسلافهم فى التدين والإيمان ، وردوا على الثانى بأنهم أحرار فى أموالهم يتصرفون فيها بما يجلب لهم المصلحة فيها .

ثم أعاد النصيح لهم بأنه لا يريد لهم إلا الإصلاح ، وأنه يخشى أن يصيبهم ما أصاب الأمم فيهم كقوم نوح أو قوم هود وما الأحداث التى اجتاحت قوم لوط ببعيدة عنكم ، فعليكم أن تتوبوا إلى ربكم ، عله أن يرحمكم ، فهو واسع الرحمة ، محب لمن تاب وأتاب إليه .

## الإيضاح

( قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ؟ ) أى أصلاتك التى هى من نتاج الوسوسة وفعل المجانين تأمرك بأن نترك ماسار عليه آباؤنا جيلا إثر جيل من عبادة الأوثان والأصنام ، وإنما جعلوه مأمورا مع أن الصادر عنه إنما هو الأمر بعبادة الله وغيرها من الشرائع ، لأنه عليه السلام لم يكن يأمرهم من تلقاء نفسه بل بوحي من ربه ويبلغهم أنه مأمور بذلك ، وإسناد الأمر إلى الصلاة دون غيرها من العبادات لأنه كان



كثير الصلاة معروفاً بذلك حتى إنهم كانوا إذا رأوه يصلى تغامزوا وتضاحكوا ، فكانت هى من بين الشعائر ضحكة لهم .

( أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء ) أى أو أن نترك فعلنا ما نشاء فى أموالنا من التطفيف وغيره من التنمية والاستغلال والتصرف فى الكسب بما نستطيع من الخدق والاحتيال والخديعة ، فما ذاك إلا حجر على حريتنا ونحكم فى إرادتنا وذكاؤنا .  
والخلاصة — إنهم ردوا عليه الناحيتين الدينية والدنيوية بما رأوا من شبه مزيغة ، وحجج آفنة .

ثم أتبعوا ذلك بما يدل على السخرية والهزء به فقالوا :  
( إنك لأنت الحليم الرشيد ) أى أنت ذو الجهالة والسفاهة فى رأى ، والغواية فى الفعل بهوس الصلاة ، لكنهم عكسوا القضية تهكماً واستهزاء كما يقال للبخیل : لورأك حاتم لاقتدى بك فى سخائك .

( قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربى ) أى قال يا قوم أخبرونى عن شأنى وشأنكم إن كنت على حجة واضحة من ربى ومالك أمرى فيما دعوتكم إليه وما أمرتكم به ونهيتكم عنه فكان وحياً منه لأرايأ منى .

( ورزقنى منه رزقا حسنا ) فى كثرته وفى صفته وقد كان ذلك بالخلال بلا تطفيف مكيال ولا ميزان ولا بخس لحق أحد من الناس ، فما أقوله لكم صادر عن تجربة فى الكسب الطيب وما فيه من خير وبركة ، لاعت آراء نظرية ممن ليست له خبرة — فإذا أقول غير الذى قلت عن وحى من ربى وعن تجربة فى مالى هل يسعنى بعد هذا التقصير فى التبليغ والسكران لأوامر الله .

( وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ) أى وما أريد بنهى إياكم عما أنهاكم عنه من البخس والتطفيف أن أقصده بعد ما وليتم عنه ، فاستبد به دونكم مؤثراً لنفسى عليكم ، بل أنا مستمسك به قبلكم .

( إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ) أى ما أريد إلا الإصلاح بالنصيحة والموعظة

ما استطعت إلى ذلك سبيلاً لا آو فيها جهداً ، وليس ذلك عن هوى ولا منفعة خاصة ،  
ولولا ذلك ما فعلته .

وفي ذلك إيماء إلى إثبات عقله ورشده وحكمته ، وإبطال اتهمهم ، واستهزائهم  
بتلقيهم إياه ( بالحليم الرشيد ) .

( وما توفيقى إلا بالله ) التوفيق الفوز والفلاح في كل عمل صالح وسعى حسن ،  
وحصول ذلك يتوقف على كسب العامل وطلبه من الطريق الموصّل إليه ، وتيسير  
الأسباب التي يسهل معها الحصول عليه ، وذلك إنما يكون من الله وحده ، أى  
وما توفيقى لإصابة الحق والصواب في كل ما آتى وما أذر إلا بهداية الله تعالى ومعاونته .  
( عليه توكلت وإليه أنيب ) أى عليه توكلت في أداء ما كلفنى من تبليغكم  
ما أرسلت به لأعلى حولى وقوتى ، وإليه أرجع في كل ما أهمنى في الدنيا ، وهو الذى  
يجازينى على أعمالى فى الآخرة .

والخلاصة — إنه لا يرجو منهم أجراً ولا يخشى منهم ضيراً .  
( ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصببكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم  
صالح ) أى لا تحملنكم عداوتى وبغضى وفراق الدين الذى أنا عليه على الإصرار على  
ما أنتم عليه من الكفر بالله وعبادة الأوثان وبخس الناس فى المكيال والميزان ،  
فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح من الفرق أو قوم هود من العذاب أو قوم صالح  
من الرجفة .

( وما قوم لوط منكم ببعيد ) زماناً ولا مكاناً أى إن لم تعتبروا بمن ذكرنا قبلُ لقدم  
عهد أو بعد مكان فاعتبروا بهؤلاء ، فإنهم بمرأى منكم ومسمع .  
وقد يكون المعنى — ليسوا ببعيد منكم فى الكفر والمساوى فاحذروا أن يحل بكم  
مثل ما حل بهم من العذاب .

( واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه ) أى واطلبوا من ربكم المغفرة مما أنتم عليه من  
عبادة الأوثان وبخس الناس حقوقهم فى المكيال والميزان ، ثم ارجعوا إلى طاعته  
والإلتواء إلى أمره ونهيهِ .

(إن ربي رحيم ودود) أى إن ربي رحيم بمن تاب وأتاب إليه أن يعذبه بعد التوبة ، كثير الود والحبة ، فيحب من يتوب ويرجع إليه .  
وفى الآية إرشاد إلى أن الندم على فعل الفساد والظلم بالتوبة واستغفار الرب تعالى من أسباب خير الدنيا وخير الآخرة .

قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ،  
وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي  
أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ؟ وَاتَّخِذْهُمُ وِرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ  
مُحِيطٌ (٩٢) وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْمَلُونَ  
مِنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ، وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣)  
وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ  
ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا  
بُعْدًا لِّلَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُ الْمُشْرِكِينَ (٩٥)

### تفسير المفردات

الفقة : الفهم الدقيق المؤثر في النفس الباعث على العمل ، والرهط : الجماعة من  
الثلاثة إلى السبعة أو العشرة ، لرجمناك بالرمي بالحجارة ، بعزير : أى ذى عزة  
ومنة ، واتخذ ظهرياً (بالكسر والتشديد) أى جعله نسياً منسيا لا يذكر كأنه غير  
موجود ، ومحيط : أى محص ماتعملون ، وعلى مكاتتكم : على غاية تمكنكم من أمركم  
وأقصى استطاعتكم وإمكانكم ، يقال مكن مكانة : إذا تمكن أبلغ تمكن ، وارتقبوا :  
أى وانتظروا ، والصيحة : أى صيحة العذاب ، وجاثمين : أى باركين على ركبهم  
مُسكبين على وجوههم ، وغنى بالمكان : أقام به ، وبعدا : أى هلاكاً لهم .

## المعنى الجملى

بعد أن جادلوه أولاً بالتي هي أحسن ، وُعْيت عليهم العلل ، وضائق بهم الحيل ، ولم يجدوا للمحاورة ثمرة - تحوّلوا إلى الإهانة والتهديد ، وجعلوا كلامه من الهذيان والتخليط الذى لا يفهم معناه ، ولا تُدرِكُ فحواه ، فقابلهم بالإنداز بقرب الوعيد ، ونزول العذاب الشديد .

## الايضاح

( قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول ) أى ما نعلم حقيقة كثير مما تقول وتخبرنا به ، من بطلان عبادة آلهمتنا ، وقبح حرية التصرف فى أموالنا ، ومجىء عذاب يحيط بنا ، وإصابتنا بمثل الأحداث التى أصابت من قبلنا ، كأن أمرها بيدك ، يصيب بها ربك من يشاء لأجلك .

( وإنا لنراك فىنا ضعيفا ) لاقوة لك ولا قدرة على شئ من الضر والنفع ، ولا تستطيع أن تمتنع منا إن أردنا أن نبطش بك .

( ولولا رهطك لرجمناك ) أى ولولا عشيرتك الأقربون لقتلناك بالحجارة حتى تُدفن فيها .

( وما أنت علينا بعزیز ) أى وما أنت بذى عزة ومنعة تحول بيننا وبين رجلك ، وإنما نُعزِّزُ رهطك على قلتهم ؛ لأنهم منا وعلى ديننا الذى نبذته وراء ظهرك وأهنته ، ودعوتنا إلى تركه لبطلانه فى زعمك .

فوبخهم شعيب على سفاهتهم كما حكى سبحانه عنه .

( قال يا قوم أرهطى أعزُّ عليكم من الله ) أى قال يا قوم : أرهطى أعز عليكم وأكرم من الله حتى كان امتناعكم عن رجى بسبب انتسابى إليهم ، وأنهم رهطى ؛ لا بسبب انتسابى إلى الله تعالى الذى أدعوكم إليه بأمره .

( واتخذتموه وراءكم ظهريا ) أى واستخففتكم بربكم فجعلتموه خلف ظهوركم ،

لاتأتمرون لأمره ، ولا تخافون عقابه ، ولا تعظمونه حق التعظيم ، وكان القوم يؤمنون بالله ويشركون به سواء . وأكثر الناس اليوم لا يراقبون الله في أقوالهم ولا في أعمالهم . فيرجوه إذا أحسنوا ، ويخافوه إذا أساءوا ، ويتسابقوا إلى الإحسان ابتغاء مرضاته :  
( إن ربي بما تعملون محيط ) أى إن ربي محيط علمه بعملكم فلا يخفى عليه شيء منه وهو مجازيكم عليه ، وأما رهطى فلا يستطيعون لكم ضرا ولا نفعا .  
ولا يخفى ما فى ذلك من التهديد والوعيد .

ثم هددهم مرة أخرى فقال :  
( ويا قوم اعملوا على مكانتكم ) أى ويا قوم اعملوا ما استطعتم على منتهى تمككنكم فى قوتكم وعصبيتكم .

وخلاصة ذلك — اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والمشاقة وسائر مالاخبر فيه ، وهذا كلام من واثق بقوته بربه ، وضعف قومه على كثرتهم ، وإدلالهم عليه ، وتهديدهم له بقوتهم .

( إني عامل ) على مكانتى على قدر ما يؤيدنى الله به من وسائل التأييد والتوفيق .  
( سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب ) أى سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويذله ، أنا أم أنتم ؟ ومن هو كاذب فى قوله ، ومن هو صادق منى ومنكم — وهذا تصريح منه بالوعيد بعد التلميح بالأمر بالعمل المستطاع تعجيزاً لهم .  
( وارتقبوا إني معكم رقيب ) أى وانتظروا ما أقول لكم من حلول ما أعدكم به وظهور صدقه ، إني مرتقب منتظر .

ثم ذكر أنه كان صادقا فى وعيده لهم فخل بهم سوء العذاب فقال :  
( ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا ) أى ولما جاء أمرنا بعذابهم الذى أنذروه نجينا رسولنا شعيبا والذين آمنوا به فصدقوه على ما جاءهم به من عند ربهم برحمة خاصة بهم .

( وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ) أى وأخذت أولئك

الظالمين بسبب ظلمهم صيحة العذاب كالتى أخذت ثمود فأصبحوا جميعا باركين على ركبهم مكبين على وجوههم فى ديارهم .  
( كأن لم يغنوا فيها ) أى كأنهم لم يقيموا فيها متصرفين فى أطرافها متقلبين فى أكنافها .

ثم دعا عليهم بالهلاك فقال :

( ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود ) أى هلاكا لهم وبعدا من رحمة الله كما بعدت من قبلهم ثمود من رحمته بإزال سخطه بهم .

والخلاصة — إن الله أرسل على كل من ثمود ومدين صاعقة ذات صوت شديد فرُجفت أرضها ، وزلزلت من شدتها ، وخروا ميتين ، وكانت صاعقتها أشد من الصاعقة التى أخذت بنى إسرائيل حين قالوا ( أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ) وقد أحياهم الله عقبها ، لأن هذه تربية لقوم نبى فى حضرته ، وتلك صاعقة كانت عذاب خزى لمشركين ظالمين معاندين أنجى الله نبى كل منهما ومؤمنيهما قبلها .

### قصة موسى وفرعون

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٩٦) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ  
فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ  
الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةَ  
وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩)

### تفسير المفردات

الآيات : هى الآيات التسع المعدودة فى سورة الإسراء والمفصلة فى سورة الأعراف وغيرها ، والسلطان المبين : هو ما آتاه الله من الحجة البالغة فى محاوراته مع فرعون

وملئه ، والملا : أشرف القوم وزعمائهم ، وما أمر فرعون : أى ماشأنه وتصرفه ،  
برشيد : أى بذى رشد وهدى ، وقَدَمَ يَقْدُمُ ( كنصر ينصر ) : تقدم ، فأوردهم النار :  
أى أدخلهم إياها ، والورد بلوغ الماء فى موره من نهر وغيره ، والمورود : الماء والمراد  
به هنا النار ، وأتبعوا : أى وألحقت به لعنة ، والرُفد : ( بالكسر ) : العطاء والعون .  
فيقال رفده وأرفده : أعانه وأعطاه ، والمرفود : المعطى .

### المعنى الجملى

ذكر سبحانه فى هذه الآيات قصص موسى مع فرعون وملئه للإعلام بأن عاقبة  
فرعون وأشراف قومه اللعنة والمهلك ككفار أولئك الأقوام الظالمين وإن كان عذاب  
الخرى وهو الفرق فى البحر لم يعم جميع قومه ، بل لحق من اتبع موسى وسار أثره  
للأسباب التى سلف ذكرها فى سورة الأعراف .

### الايضاح

( ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وملئه ) أى ولقد أرسلنا  
موسى إلى فرعون وملئه مصحوبا بآيات بينات دالة على توحيد الله ، وفيها السلطان  
المبين ، والحجة الواضحة على صدق نبوته ، وإنما خص الملا بالذكر وقد أرسل إلى قومه  
جميعا ، لأنهم أهل الحل والعقد والاستشارة فى دولته ، ويعهد إليهم بتنفيذ ما يقرره من  
الأمر ، فغيرهم يكون تبعاً لهم فى كل ما يأتون ويذرون .

( فاتبعوا أمر فرعون ) فى كل ماقرره من الكفر بموسى ورد ما جاءهم به من  
عند الله ، وتشديد الظلم على بنى إسرائيل بتقيل أثاثهم واستحياء نسائهم إلى نحو  
أولئك مما جاء فى السور الأخرى مفصلا .

( وما أمر فرعون برشيد ) أى وما شأنه وتصرفه بصالح حميد العاقبة ، بل هو محض  
غى وضلال ، وظلم وفساد ، لمروره بنفسه ، وكفرانه بربه ، وطغيانه فى حكمه .

ثم ذكر جزاءه مع قومه فى الآخرة فقال :

( يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار ) أى يتقدم قومه يوم القيامة ويكونون تبعاً له كما كانوا تابعين فى الدنيا إلا من آمن ، فيوردهم جهنم معه : أى يدخلهم إياها .  
وقد ورد أن آله يُعْرَضُونَ عَلَى النَّارِ مِنْذُ مَا تَوَاتُوا صَبَاحًا وَمَسَاءً مِنْ كُلِّ يَوْمٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى : « وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ . النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » .

( وبئس الورد المورود ) أى وبئس الورد الذى يردونه النار ، لأن وارد الماء إما يردّه لتبريد كبده وإطفاء غلته من حر الظمأ ، ووارد النار يحترق فيها احتراقاً .

قال ابن عباس رضى الله عنه فى الآية : الورد الدخول وقد ذكر فى أربعة مواضع :  
فى هود « وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ » وفى مريم « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا »  
وفى الأنبياء « حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ » وفى مريم أيضاً « وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِثًا » وكان يقول : والله ليردن جهنم كل برّ وفاجر « ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا » .

( وأتبعوا فى هذه لعنة ويوم القيامة ) أى وألحقت بهم لعنة عظيمة ممن بعدهم من الأمم ، ويوم القيامة أيضاً يلعنهم أهل الموقف جميعاً فهى تابعة لهم حينما ساروا ، ودائرة أينما داروا .

والآية بمعنى قوله : « وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ » .

وقد سى الله هذه اللعنات رفداً تهكماً بهم فقال :

( بئس الرفد المرفود ) أى بئس العطاء المعطى هذه اللعنة التى أتبعوها

فى الدنيا والآخرة .



وفى الآيات من العبرة أن فى البشر فرأنة كثيرين يُغَوُّونَ الناسَ ويستعبدونهم ، فيطيعونهم وَيَذَلُّونَ لَهُمْ ذُلَّ الْعَبِيدِ ، ولا تنفيذهم هداية القرآن شيئاً . ومنهم من يدعون الإسلام ولا يفقهون قول الله لرسوله فى آية مبايعة النساء (وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ) وقوله صلى الله عليه وسلم « لا طاعة لأحد فى معصية الله إنما الطاعة فى المعروف » .

### العبرة بقصص الأمم الظالمة وبما آل إليه أمرها

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقِصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ، فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْنِيبٍ (١٠١) وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ ، إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢)

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر قصص الأمم الماضية والقرون السالفة مع الرسل الذين أرسلوا إليهم ، نبه إلى مافى ذكرها من عظة واعتبار بقوله : ( منها قائم وحصيد ) فالسامع لها والقارى يلين قلبه ، وتخضع نفسه ، فيحمله ذلك على النظر والاعتبار بها - إلى مافى إخباره صلى الله عليه وسلم بها من غير مطالعة كتب ولا مدارس مع معلم ، من عظيم الدلالة على نبوته ، إذ أن هذا لا يكون إلا بوحي من العلى الأعلى أتاه به روح القدس .

### الايضاح

( ذلك من أنباء القرى نقصه عليك ) أى ذلك الذى قصصناه عليك بعض أخبار الأمم الماضية ، وأهم أطوار اجتماعها فى المدائن والقرى من قوم نوح ومن بعدهم ، نقصه (٦)

عليك في هذا القرآن ، لتتلوه على الناس ويتلوه المؤمنون آثاء الليل وأطراف النهار  
إنذاراً وتبليغاً عنا .

( منها قائم وحصيد ) أى من تلك القرى ما بقيت آثارها ماثلة كالزرع القائم  
في الأرض كقوم صالح ، ومنها ما عفت وذرت آثارها كالزرع المحصود الذى لم يبق منه  
بقية في الأرض كقرى قوم لوط .

( وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ) أى وما كان إهلاكهم بغير جرم استحقوا  
به الهلاك ، ولكن ظلموا أنفسهم بشركهم وإفسادهم في الأرض وإصرارهم على ذلك  
حتى لم يبق فيهم استعداد لقبول الحق ، ولو بقوا زماناً ما زادادوا إلا ظلموا وخجروا وفسادا  
في الأرض كما قال نوح عليه السلام : « إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يَفْسُدُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا  
إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا » .

وقد بالغ رسالهم في وعظهم وإرشادهم فما زادهم ذلك إلا عتوا واستكباراً ، وأنذروهم  
بالنذر فما زادهم ذلك إلا إصراراً وعناداً ، ثقة منهم بأن آلهتهم تدفع عنهم كل مخوف ،  
وتبعد عنهم كل محذور ، جهلاً منهم بما كانوا يعملون ، ومن ثم قال :  
( فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك )  
أى فما نفعتهم ولا دفعت بأس الله عنهم آلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله ويطلبون  
منها أن تدفع عنهم الضر بنفسها أو بشفاعتها عنده - لما جاء عذاب ربك تصديقاً  
لما أنذروهم به رسله .

( وما زادوهم غير تنبيذ ) يقال تنبيذ : أهلكه ، وتب فلان وتبت يده : خسر  
أو هلك ، وتباً لفلان : دعاء عليه بالهلاك ، أى وما زادوهم إلا هلاكاً وتدميراً ، إذأنهم  
باتكلمهم عليهم ازدادوا كفراً وإصراراً على الظلم والفساد ، ظناً منهم أنهم ينتقمون لهم  
من الرسل كما حكى الله تعالى عن بعضهم قوله : « إِن نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ  
آلِهَتِنَا بِسُوءٍ » .

(وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة) أى ومثل ذلك الأخذ بالعذاب وعلى نهجه وطريقه ، أخذ ربك أهل القرى وهي متلبسة بالظلم ، فذلك عقاب لامفرّ منه ولا مهزّب .

وفى هذا إنذار وتحذير من سوء عاقبة الظلم لكل قرية ظالمة فى كل زمان ومكان (إن أخذه أليم شديد) أى إن أخذه وجميع قاسٍ لا يُرجى منه الخلاص .  
 روى أحمد والبخارى ومسلم والترمذى وابن ماجه عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله تعالى ليلى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ثم قرأ : « وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ » فليعتبر الظالمون بهذا ، ولا يغترون بالدين الذى ينتسبون إليه دون أن يعملوا ما يرفع عنهم غضب ربهم ونقمته ، فربما كان ذلك إملاء منه تعالى واستدراجا لهم .

### العظة بعذاب الآخرة

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ، ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (١٠٣) وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ (١٠٤) يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُنَّ أَنْفُسَ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوذٍ (١٠٨) فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ

مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ، وَإِنَّا لَمُفْوَهُمْ نَصِيْبُهُمْ غَيْرَ  
مَمْنُوقٍ (١٠٩)

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر العبرة فى إهلاك الأمم الظالمة فى الدنيا - ذكر هنا العبرة بجزاء الآخرة  
للاشقياء والسعداء ، فالأولون يصلّون النار التى لهم فيها شهيق وزفير ، والآخرون  
يمتعون بالجنة التى فيها ما تشبهه الأنفس وتلدّ الأعين وهم فيها خالدون .

### الإيضاح

( إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ) أى إن فيما قصه الله من إهلاك  
أولئك الأمم وبيان سنته فى عاقبة الظالمين ، لحجة بيّنة وعبرة ظاهرة لمن يخاف عذاب  
الآخرة يعتبر بها فيتقى الظلم فى الدنيا على سائر ضروبه ، إذ يعلم أن من عذب الظالمين  
فى الدنيا قادر أن يعذبهم فى الآخرة ، وأن ما حاق بهم فى دار الفناء ، أعمودج لما يكون  
لهم فى دار البقاء .

والماديون فى هذا العصور وفى عصور سابقة كما حكاه البيضاوى عن بعض أهل  
عصره يقولون : إن الطوفان والصاعقة وخسف الأرض كل أولئك قد حدثت بأسباب  
طبيعية لا بإرادة الله واختياره لتربية الأمم - ويكفى فى الرد عليهم أن يقال : إن  
حدوث هذه الأشياء وغيرها بالأسباب الموافقة لسنة الله فى نظام العالم هو المراد  
بالقضاء والقدر فى القرآن الكريم ، والله تعالى أحدث هذه الأسباب فى أوقات معينة  
بحكمته لعقاب تلك الأمم بها ، ولم تكن من قبيل المصادفات .

والدليل على ذلك أن أولئك الرسل أنذروا أقوامهم بحدوثها قبل أن لم تكن ،  
ومنهم من ذكر وقتها على سبيل التعيين والتحديد ، وهكذا يفعل الله بالظالمين فى كل

زمان وإن لم يكن فيهم من ينذرهم بوقوع ما يحل بهم اكتفاء بإنذار القرآن كما قال :  
« وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ » .

( ذلك يوم مجموع له الناس ) أى ذلك اليوم الذى يقع فيه عذاب الآخرة يوم يُجمع له الناس كلهم ليحاسبوا على ما عملوا ثم يوفوا جزاءهم بالعدل والقسطاس .

( وذلك يوم مشهود ) أى وذلك يوم يشهده الخلائق جميعا من الإنس والجن والملائكة وغيرهم .

( وما تؤخره إلا لأجل معدود ) أى وما تؤخر ذلك اليوم إلا لانتها مدة معلومة فى علمنا لا تزيد ولا تنقص ، وهى انتهاء مدة الدنيا ، وكل شئ معدود محدود فهو قريب ، ولم يطلع الله أحدا من خلقه على معرفة ذلك اليوم .

( يوم يأت لاتكلم نفس إلا بإذنه ) أى فى ذلك الحين الذى يحىء فيه اليوم المعين لاتكلم نفس من الأنفس الناطقة إلا بإذنه تعالى ، إذ لا يملك أحد فيه قولا ولا فعلا إلا بإذنه كما قال تعالى : « يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ خَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا » وقال : « هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ، وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ » وقال : « يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَسَكَمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا » .

( فمنهم شقى وسعيد ) أى فمن يُجمع فى ذلك اليوم ؛ شقى مستحق للعذاب الأليم الذى أوعده به الكافرون ، وسعيد مستحق لما وعد به المتقون ، من الثواب والنعيم الدائم . والأطفال والمجانين لا يدخلون فى هذا التقسيم لعدم التكليف — ويدخل فيه من استوت حسناتهم وسيئاتهم من المؤمنين ، ومن تغلب سيئاتهم ويعاقبون عليها إلى حين ثم يدخلون الجنة ، لأنهم من فريق السعداء باعتبار العقوبة . فالسعداء درجات ، والأشقياء دركات .

روى الترمذى وأبو يعلى وغيرهما عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : لما نزلت « فمنهم شقى وسعيد » قلت : يا رسول الله فعلام نعمل ؟ على شيء قد فرغ منه أو على شيء لم يُفرغ منه ؛ قال : « بل على شيء قد فرغ منه وجرت به الأقلام ياعمر ، ولكن كلٌ ميسر لما خلق له » وروى عن على كرم الله وجهه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان فى جنازة فأخذ عودا فجعل ينكت فى الأرض فقال : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » وقرأ : « فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى » والمراد أن الله يعلم الغيب وأنه يعلم المستقبل كله بجميع أجزائه وأطرافه ، ومنه عمل العاملين وما يترتب على كل عمل من الجزاء بحسب وعده ووعيده فى كتابه المنزل وكتابه للعقابر ، والنبي صلى الله عليه وسلم علمنا أن الجزاء بالعمل ، وأن كل إنسان ميسر له ومسهل عليه ما خلقه الله لأجله من سعادة الجنة ، أو شقاوة النار ، وأن ما وهبه من الاستعداد والعزيمة يكون له تأثير فى تربية النفس وتوجيهها إلى ما تعتقد أن فيه سعادتها وخيرها .

ثم فصل جزاء الفريقين فقال :

( فأما الذين شقوا فى النار لهم فيها زفير وشهيق ) الزفير تنفس الصعداء من الهم والكرب إذا امتد واشتد وُسِّع صوته ، والشهيق النشيج فى البكاء إذا اشتد تردده فى الصدر وارتفع به الصوت ، أى فأما الذين شقوا فى الدنيا بما كانوا يعملون من أعمال الأشقياء لفساد عقيدتهم الموروثة وسوء القدوة فى العمل حتى أحاطت بهم خطيئاتهم وانطفأ نور الفطرة من أنفسهم ، فلهم فى النار التى هى مستقرهم ومشواهم زفيرٌ وشهيق من حرج صدورهم وضيق أنفاسهم وشدة كربهم .

( خالدين فيها مادامت السموات والأرض ) أى ما كثرن فيها مكث خلود وبقاء مدة دوام السموات التى تظلم والأرض التى تقلّهم ، والمراد التأيد ونقى الانقطاع على منهج قولهم : لأفعله ما بدا كواكب ، وما أضاء الفجر ، وما تفتت حمامة ، والنصوص متظاهرة على تأييد قرارهم فيها .

وسماء كل من أهل الجنة والنار ما هو فوقهم ، وأرضهم ما هم مستقرون عليه وهو تحتهم ، كما قال تعالى « يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ » وقال ابن عباس والشدّي والحسن : لكل أرض وسما .

(إلا ما شاء ربك) أى إن هذا الخلود دائم إلا ما شاء ربك من تغيير فى هذا النظام فى طور آخر ، إذ أنه إنما وضع بمشيئته وسبق كذلك ، ويراد بمثل هذا فى سياق الأحكام القطعية الدلالة على تقييد تأييدها بمشيئته تعالى فقط ، للإفادة عدم عمومها كما فى قوله : « قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ » أى لأملك شيئاً من ذلك بقدرتى إلا ما شاء الله أن يملكه منه بتسخير أسبابه وتوقيفه ، ونحو ذلك قوله : « سَنَقْرُبُكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ » أى إنه تعالى ضمن لنبيه حفظ القرآن الذى يقرئه إياه وعصمه ألا ينسى منه شيئاً كما هو مقتضى الضعف البشرى إلا أن يكون بمشيئة الله فهو وحده القادر على ذلك .

(إن ربك فعال لما يريد) فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ؛ ومشيئته تعالى إنما تتعلق بما سبق به علمه واقتضته حكمته ، وما كان كذلك لم يكن إخلافاً لشيء من وعده ولا من وعيده كخلود أهل النار فيها .

(وأما الذين سعدوا فى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ) المجذوذ: المقطوع ، من جذّاه إذا قطعه أو كسره ، وهو كقوله : « لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ » أى إن هذا الجزاء هبة منه وإحسان دائم غير مقطوع ، وقد كثر وعد الله تعالى للمؤمنين المحسنين بأنه يزيدهم من فضله ، وبأنه يضاعف لهم الحسنة بعشرة أمثالها ، وبأنه يكثر من ذلك إلى سبعائه ضعف ، وبأنه يجزيهم بالحسنى ، وبأحسن مما عملوا - ولم يوعده بزيادة جزاء الكافرين والمجرمين على ما يستحقون ، بل أوعدهم بأنه يجزيهم بما عملوا ، وبأن السيئة بمثلها وهم لا يظلمون ، وبأنه لا يظلم أحداً ، وهذا الجزاء وهو الخلود فى النار أثر طبيعى لتدسية النفس بالكفر والظلم والفساد .

وبعد أن شرح سبحانه أفاصيص عبدة الأوثان ، ثم أتبعه بأحوال الأشقياء والسعداء ، أنذر أعداء النبي صلى الله عليه وسلم والمشركين من قومه بما حل بالأمم المهلكة من العذاب فقال :

( فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء ) أى إذا كان أمر الأمم للمشركة الظلمة في الدنيا ثم في الآخرة كما قصصناه عليك ، فلا تكن في أدنى ريب مما يعبد قومك هؤلاء في عاقبته بمقتضى تلك السنن التي لا تبديل لها .

وفي ذلك تسلية له صلى الله عليه وسلم ووعيد لقومه كما لا يخفى .

ثم بين حالهم في عبادتهم وجزاءهم عليها فقال :

( ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل ، وإنا لموفونهم نصيبهم غير منقوص ) أى إنهم أشبهوا آباءهم في الجهل والتقليد فهم مقلدون لهم ، وإنا لمعطوهم نصيبهم من جزاء أعمالهم في الدنيا وافيا تاما لا ينقص منه شيء كما وفينا آباءهم الأولين من قبل ؛ فأعمال الخير التي يعملونها في الدنيا كبر الوالدين وصلة الأرحام وإغاثة الملهوف يوفون جزاءهم عليها بسعة الرزق وكشف الضر جزاء تاما وافيا ولا يجزون عليها في الآخرة ، ومثل هذا الجزاء متاع عاجل لا يلبث أن يزول .

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ  
مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١١٠) وَإِنْ كُلًّا لَمَّا  
يَوْمَ فَيُنْهَوْنَ عَنْ أَعْمَالِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَّا يَعْمَلُونَ خَيْرٌ (١١١)

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر مشركى مكة بأقوام غلب عليهم الكفر والجحود ولم يؤمن إلا القليل منهم ، فوفاهم جزاء أعمالهم في الدنيا وسيوفهم جزاءهم في الآخرة - ذكرهم في هاتين



الآيتين بقوم موسى الذين آتاهم الكتاب فاختلفوا فيه ، وأن مثل الذين يختلفون من أمته في الكتاب مثل هؤلاء .

## الايضاح

( ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ) أى فاختلف في الكتاب وكونه من عند الله فأمن به قوم وكفر به آخرون ، فلا تبال باختلاف قومك فيما آتيناك من القرآن كقولهم « لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ » وزعمهم أن القرآن مفترى .

( ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم ) الكلمة هى كلمة القضاء بتأخير العذاب إلى الأجل المسمى بحسب الحكمة الداعية إلى ذلك ، أى ولولا ماتقدم من حكم الله بتأخير إهلاك البغاة المثيرين للاختلاف فيه بأهوائهم ، وإبقاء المعتصمين بالوحدة والاتفاق على هدايته ، لأهلكهم ، كما أهلك الذين ردوا دعوة الرسل جحودا وعنادا . ( وإنهم لنى شك منه مريب ) أى وإن المكذبين به منهم لنى شك موقع فى الريب والاضطراب ، فلا يدرون أحق هو أم باطل .

وجاء فى معنى الآية قوله « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ، كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ . وَمَاتَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَيْنَهُمْ ، وَأَوَّلَا كَلِمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَنى شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ » والذين أورثوا الآيات بعد من تقدم ذكرهم من الأنبياء هم اليهود والنصارى وقد عرض لهم من الشك والريب فى كتبهم ما لم يكن فى عهد

سلفهم ، إذ أن التوراة التي كتبها موسى عليه السلام قد فُقدت في إحراق البابليين لهيكل سليمان ، والنصارى كانوا أشد اختلافا في كتبهم ومذاهبهم .  
 ( وإن كلالا ليوفينهم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خبير ) أى وإن كل أولئك المختلفين الذين قصصنا عليك قصصهم ليوفينهم ربك جزاء أعمالهم إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، إذ لا يخفى عليه شيء منها .

فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢) وَلَا تَزِرُ كَيْفُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (١١٣)

### المعنى الجملى

بعد أن بين أمر المختلفين في التوحيد والنبوة ، وأطنب في وعدهم ووعيدهم أمر رسوله صلى الله عليه وسلم ومن تاب معه بالاستقامة وهى كلمة جامعة لكل ما يتعلق بالعلم والعمل والأخلاق الفاضلة .

### الإيضاح

( فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا ) أى فالزم الصراط المستقيم الذى لا عوج فيه واثبت عليه ، وكذلك فليستقم من تاب من الشرك وآمن معك ، ولا تنحرفوا عما رسم لكم بتجاوز حدوده غلوا فى الدين ، فإن الإفراط فيه كالتفريط كلاهما زنى عن الصراط المستقيم .

وفى هذا إيماء إلى وجوب اتباع النصوص فى الأمور الدينية من عقائد وعبادات واجتناب الرأى وبطلان التقليد فيها .

وإيضاح هذا — إن تحكيم العقل البشرى فى الخوض فى ذات الله وصفاته وفيما دون ذلك من عالم الغيب كالملائكة والعرش والجنة والنار — تجاوز لحدوده ، فإن أكبر العلماء والفلاسفة عقولا عجزوا إلى اليوم عن معرفة كنهه أنفسهم وأنفس مادونهم من المخلوقات صغيرها وكبيرها حتى الحشرات منها كالنحل والنمل ، فأتى لهم أن يعرفوا كنه ذات الله وصفاته أو معرفة حقيقة ملائكته وغيرهم من جند الله ؟ .

ولما خرج متأخر والأمة عن هدى سلفهم من الصحابة والتابعين لهم بإحسان زاغوا فكانوا : « مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ » فسقط بعضهم فى خيال التشبيه ، و بعضهم فى خيال التعطيل .

ولو كانوا قد نهجوا نهج السابقين لتجنبوا أسباب الخلاف والتفرق فى الدين الذى أوعده الله أهله بالعذاب العظيم وبرأ رسوله منهم .

والواجب التزام كتاب الله ومافسرته به سنة رسوله صلى الله عليه وسلم من العبادات العملية بدون تحكم بالرأى والقياس ، والمعاملات على النحو الذى بينه الكتاب والسنة على السنن القويم دون تأويل ولا تخريج لهما على غير مايفهم من ظاهرهما .

أما الاختلاف فيما عدا ذلك من أمور القضاء والسياسة وأمور المعاش من زراعات وتجارات فهو أمر طبيعى لا يمكن الغنى عنه ، فلولا لما تقدمت شئون الحياة ، ولما حصل التنافس لدى أرباب المهن والصناعات ، ولما جد كل يوم بدع جديد ( موضح ) ولما كان الناس دائما على الفطرة الأولى ، وأتى لعقل الإنسان أن يستمر على حال واحدة وقد أوتى الخلافة فى الأرض وحسن استعمارها ، وبهذا وحده فضّل الملائكة والله فى خلقه شئون .

وقد بين سبحانه لنا المخرج إذا حدث بيننا الخلاف فى الدين فقال : « فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ » الآية وقد فسر ذلك النبي صلى الله عليه

وسلم بقوله لمعاذ بن جبل حين ولاه القضاء في اليمن « بم تقضى ؟ قال بكتاب الله . قال فإن لم تجد ؟ قال فبسنة رسوله . قال فإن لم تجد ؟ قال أجتهد رأيي - فأقره على ذلك » . وهذا هو الاستقامة في الدين التي بها يرقى المرء إلى أعلى عليين ، وقد حث الله رسوله عليها في هذه الآية وحث موسى وهارون عليها فقال : « قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا » .

ومدح من اتصفوا بها ووعدهم بالخير والفلاح في الآخرة فقال : « إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ » .

وروى مسلم عن سفيان الثقيفي قال : « قلت يارسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك . قال : ( قل آمنت بالله ثم استقم ) » .

( إنه بما تعملون بصير ) أى إنه تعالى بصير بعملكم ومحيط به فيجزىكم به ، فاتقوه أن يطلع عليكم وأنتم عاملون بخلاف أمره .

ونظير هذه الآية قوله « فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ، لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ » .

( ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون ) الركون إلى الشيء : الاعتماد عليه ، وركن الشيء : جانبه الأقوى ، وما تنقوى به من ملك وجند وغيره ومنه قوله تعالى « فَتَوَلَّيْ بِرُكْنِهِ » والمراد من الظالمين هنا أعداء المؤمنين الذين يؤذونهم ويفتنونهم عن دينهم من المشركين ليردوهم عنه ، فهم بمعنى الذين كفروا في الآيات الكثيرة ، وتمسكم النار ، أى تصيبكم ، أى لا تستندوا إلى الذين ظلموا من قومكم المشركين ولا من غيرهم فنجعلوهم ركناً لكم

تعتمدون عليه فتقرؤهم على ظلمهم وتوالوهم في شئونكم الحربية وأعمالكم الدينية ، فإن الظالمين بعضهم أولياء بعض .

وخلاصة ذلك — لاستعينوا بالظلمة فتكونوا كأنكم رضىتم عن أعمالهم ، فإن فعلتم ذلك أصابتكم النار التي هي جزاء الظالمين بسبب ركونكم إليهم والاعتزاز بهم والاعتماد عليهم ، والركون إلى الظلم وأهله ظلم « وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » .

وليس لاسكم في هذه الحال التي تركنون فيها إليهم غير الله ولياً يتقدم ويخلصكم من عذابه ، ثم لاتنصرون : أى لاينصركم الله لأن الذين يركنون إلى الظالمين يكونون منهم وهو لاينصر الظالمين كما قال « وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ » بل تكون عاقبتكم الحرمان مما وعد الله رسله ومن ينصره من المؤمنين .

والخلاصة — إن الركون إلى الظالمين المنهى عنه هو الاعتماد على أعداء المؤمنين الذين يفتنونهم ويصدونهم عن دينهم ، ويؤيده ماروى عن ابن عباس رضى الله عنه أنه فسر الظلم هنا بالشرك . والذين ظلموا بالمشركون ، وقيل إنها عامة في الظلمة من غير فرق بين كافر ومسلم ، ولو فرضنا أن سبب النزول هم المشركون ، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

ومن ابتلى بمخالطة الظلمة فليزن أقوالهم وأفعالهم بميزان الشرع ، فإن زاغوا عن ذلك فعلى أنفسهم قد جتوا ، وطاعتهم واجبة على كل من دخل تحت أمرهم ونهيتهم في كل ما يأمر به ما لم يكن في معصية الله ، فمن أمره أن يدخل في شيء من الأعمال أتى وكلها إليهم كالمنصب الدينية ونحوها فليدخل فيه إذا وثق من نفسه القدرة على القيام به ، إلى أنه يجب الأخذ على أيدي الظالمين عامة وعلى أئمة الجور والأمراء خاصة؛ ويجب تغيير المنكر أولاً باليد فإن لم يستطع ذلك فباللسان ، وإلا فبالقلب ، وذلك أضعف الإيمان ، روى الإمام أحمد وأصحاب السنن عن أبي بكر أنه قام فحمد الله

وأنتى عليه ثم قال: أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية - يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم حتى أتى على آخر الآية ، ألا وإن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك الله أن يعمهم بعقابه ، ألا وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الناس إذا رأوا المنكر بينهم فلم ينكروه يوشك أن يعمهم الله بعقابه » .

وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ  
السَّيِّئَاتِ ، ذَلِكَ ذِكْرَى لِلَّذِينَ كَرِهُوا (١١٤) وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ  
الْمُحْسِنِينَ (١١٥)

### تفسير المفردات

طرف الشيء : الطائفة منه والنهاية ، فطرفا النهار : الغدو والعشى . وروى عن الحسن وقتادة والضحاك أنهما صلاة الصبح والعصر ، والزلف واحدتها زلفة وهي الطائفة من أول الليل لقربها من النهار ، وقال الحسن : هما زلفتان صلاة المغرب وصلاة العشاء ، وذكرى : عبرة وعظة ، ولذا كرى : أى المتعبرين المتعظين .

### المعنى الجملى

بعد أن أمر رسوله بالاستقامة وعدم تجاوز مارسمه الدين ، وعدم الركون إلى أولى الظلم - أمره هنا بأفضل العبادات وأجل الفضائل التى يستعان بها على ماساف .

### الايضاح

( وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل ) أى أدّاها على الوجه القويم وأدمها فى طرفي النهار من كل يوم ، وفى زلف من الليل ، ونظير هذه الآية قوله فى سورة

طه « وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى » والتسبيح عام يشمل الصلاة وغيرها .

والآية الصريحة في أوقات الصلوات الخمس قوله تعالى « فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ، وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ » فالمساء ما بين الظهر والمغرب وهو صلاة العصر ، وصلاة المغرب العشاء الأولى ، وصلاة العتمة العشاء الآخرة التي يزول عندها الشفق وهو آخر أثر لنور النهار .

وخصت الصلاة بالذكر لأنها أس العبادات المغذية للإيمان والمعينة على سائر الأعمال .  
ثم بين فائدة الأمر السابق وحكمته فقال :

( إن الحسنات يذهبن السيئات ) أى إن الأعمال الحسنة تكفر السيئات وتذهب المؤاخذة عنها ، لما فيها من تزكية النفس وإصلاحها ، فتمحو منها تأثير الأعمال السيئة في النفس وإفسادها لها ، والمراد بالحسنات ما يعم الأعمال الصالحة جميعا حتى ما كان منها تركا لسيئة كما قال تعالى « إِنْ تَحْتَسِبُوا كِبَاءً مِمَّا تَنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا » وجاء في الحديث الشريف « وأتبع السيئة الحسنة تمحها » والمراد بالسيئات الصفائر لأن الكبائر لا يكفرها إلا التوبة بدليل ما رواه مسلم « الصلوات الخمس كفارة لما بينهما ما اجْتُنِبَتِ الكبائر » .

( ذلك ذكرى للذاكرين ) أى إن فيما ذكر من الوصايا السابقة من الاستقامة والنهي عن الطغيان والركون إلى الذين ظلموا وإقامة الصلاة في تلك الأوقات ، لعبارة للمتعظين الذين يراقبون الله ولا يذسونه ، وخصصهم بالذكر لأنهم هم الذين ينتفعون بها .  
( واصبر فإن الله لا يضيع أجر الحسنيين ) أى ووطن نفسك على احتمال المشقة في سبيل ما أُمِرْتَ به ، وما نُهِيتَ عنه في هذه الوصايا وفي غيرها ، فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا بل يوفيه ثواب عمله من غير ينحس له .

وفي الآية إيماء إلى أن الصبر من باب الإحسان .

فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ  
 فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ  
 وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا  
 مُصْلِحُونَ (١١٧) وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ  
 مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ، وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ  
 لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩)

### تفسير المفردات

لولا : كلمة تفيد التحضيض والحث على الفعل ، والقرون واحدهم قرن : وهو الجبل  
 من الناس ، قيل هو ثمانون سنة ، وقيل سبعون ، وشاع تقديره بمائة سنة ، والبقية :  
 ما يبقى من الشيء بعد ذهاب أكثره ، واستعمل كثيرا في الأنفع والأصلح ، لأن العادة  
 قد جرت بأن الناس ينفقون أربابا ما عندهم ويستبقون الأجود ، ويقال أترفته النعمة  
 أى أبطرتها وأفسدته ، وكلمة ربك : أى قضاؤه وأمره .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر عقوبة الأمم المكذبة لرسلاها في الدنيا والآخرة وإنذار قومه صلى الله  
 عليه وسلم بهم ، و بين ما يجب عليه وعلى من آمن به وتاب معه من الاستقامة والصلاح  
 واجتناب أهل الظلم والفساد .

ذكر هنا بيان السنن العامة في إهلاك الأمم الذين قص الله قصصهم وأمثالهم ممن  
 عصوا رسل ربهم بعد أن أنذروهم عقابه ، ووعدوهم إذا أطاعوهم ثوابه .



## الايضاح

(فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد فى الأرض) أى فهلا وُجد من أولئك الأقوام الذين أهلكتهم بظلمهم وفسادهم فى الأرض جماعة أولو عقل ورأى وصلاح ينهونهم عن الفساد فى الأرض باتباع الهوى والشهوات التى تفسد عليهم أنفسهم ومصالحهم ، فيحولون بينهم وبين الفساد ، ومن سفة الله ألا يهلك قوما إلا إذا عم الفساد والظلم أكثرهم .

(إلا قليلا ممن أنجينا منهم) أى ولكن كان هناك قليل من الذين أنجيناهم مع رسلهم منبذين لا يقبل نهيبهم وأمرهم مهديدين مع رسلهم بالإبعاد والأذى .

(واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين) أى واتبع الظالمون وهم الأكترون مارزقناهم من أسباب الترف والنعيم فبطروا واستكبروا وصدوا عن سبيل الله ، وكانوا ذوى جرائم بما ولده الترف والنعيم ، فكان هو المسخر لعقولهم ، وبذا رجحوا ما أنوا على اتباع الرسل .

وخلاصة ذلك — إن العقول السليمة كافية للفهم ما فى دعوة الرسل من الخير والصالح لو لم يمنع استعمال هدايتها الافتتان بالترف والنعيم بدلا من القصد والاعتدال فيه وشكر المنعم عليه ، وقد هدت التجارب إلى أن الترف هو الباعث على الفسوق والعصيان والظلم والإجرام ، ويظهر ذلك بديئا فى الرؤساء والسادة ، ومنهم ينتقل إلى الدماء والعامّة فيكون ذلك سببا فى الهلاك بالاستئصال ، أو فى فقد العزة والاستقلال ، وتلك هى سنة الله فى خلقه كما قال : « وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا » .

ثم بين سبحانه ما يحول بين الأمم وإهلاكها فقال :

(وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) الظلم هو الشرك أى إنه تعالى ليس من سنته أن يهلك القرى بشرك أهلها ماداموا مصلحين فى أعمالهم الاجتماعية والعمرانية والمدنية ، فلا يخسون الناس حقوقهم كما فعل قوم شعيب ، ولا يبطشون بالناس

بطش الجبارين كقوم هود، ولا يذَلُّونَ لمتكبر جبار كقوم فرعون ولا يرتكبون الفواحش ويقطعون السبيل ويأتون في ناديم المنكر كقوم لوط، بل لابد أن يضموا إلى الشرك الإفساد في الأعمال والأحكام، ويفعلوا الظلم المدمر للهمران، ومن ثم قالوا: الأمم تبقى مع الكفر ولا تبقى مع الظلم والجور، ويؤيد هذا ما أخرجه الطبراني والديلمي وابن مردويه عن جرير بن عبد الله قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يُسأل عن تفسير هذه الآية فقال: «وأهلها يُنصَف بعضهم بعضاً».

(ولو شاء ربك لجلل الناس أمة واحدة) أى ولو شاء ربك أيها الرسول الكريم، الشديد الحرص على إيمان قومك، الحزين من أجل إعراض أكثرهم عن إجابة دعوتك واتباع هديك - لجلل الناس على دين واحد بمقتضى الغريزة والفطرة لا اختيار لهم فيما يفعلون، فكانوا في حياتهم الاجتماعية أشبه بالنمل والنحل، وفي حياتهم الروحية أشبه بالملائكة مفطورين على طاعة الله واعتقاد الحق وعدم الميل إلى الزيف والجور، لكنه تعالى خلقهم كاسبين لملهمين، وعاملين بالاختيار لاجبورين ولا مضطرين وجعلهم متفاوتين في الاستعداد وكسب العلم، وكانوا في أطوارهم الأولى لا اختلاف بينهم، ثم لما كثرت وتنوعت حاجاتهم وكثرت مطالبهم ظهر فيهم الاستعداد للاختلاف كما قال تعالى: «وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا».

(ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك) أى ولا يزالون مختلفين في شئونهم الدنيوية والدينية بحسب استعدادهم الفطرى، إلا من رحم الله منهم فإنهم يتفقون على حكم كتابه فيهم وهو الذى عليه مدار جمع كلمة الأمة ووحدتها.

(ولذلك خلقهم) أى ولمشيئته تعالى فيهم الاختلاف والتفرق في علومهم ومعارفهم وآرائهم، وما يتبع ذلك من الإرادة والاختيار في الأعمال - خلقهم، وبهذا كانوا خلفاء في الأرض، ومن ذلك اختلافهم في الدين والإيمان والطاعة والعصيان، وبذا كانوا مظهراً لأسرار خلقه الروحية والجسدية أو المادية والعنوية، وقال ابن عباس

خلقههم فريقين فريقا يرحم فلا يختلف ، وفريقا لا يرحم فيختلف ، فذلك قوله :  
« فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ » .

والخلاصة — إن الناس فريقان : فريق اتفقوا في الدين فجمعوا كتاب الله حكما بينهم فيما اختلفوا فيه فاجتمعت كلمتهم وكانوا أمة واحدة فرحمهم الله ووقاهم شر الاختلاف في الدنيا وعذاب الآخرة ، وفريق اختلفوا في الدين كما اختلفوا في منافع الدنيا فكان بأسهم بينهم شديدا فذاقوا عقاب الاختلاف في الدنيا وأعقبه جزاؤهم في الآخرة ، فحرّموا من رحمة الله بظلمهم لأنفسهم ، لا بظلم منه تعالى لهم .

( وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ) أى قد سبق في قضائه وقدره وحكمته النافذة أن ممن خلقه من يستحق الجنة ، ومنهم من يستحق النار ، وأن الجنة والنار لا بد أن يمدّلا من على الجن والإنس الذين لا يهتدون بما أرسل به رسوله وبما أنزل عليهم من كتبه هداية المكلفين والحكم بين المختلفين .

وَكَلَّا تَقْصُ عَلَيكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثِّبُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ  
فِي هَذِهِ الْحَقِّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ  
اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١) وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٢٢)  
وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهَا فاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ  
عَلَيْهِ ، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣)

### تفسير المفردات

القص : تتبع أثر الشيء للإحاطة به كما قال تعالى : « وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ  
فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » والنبا : الخبر الهام ، وثبت : أى تقوى  
ونجعل فؤادك راسخا كالجلبل ، على مكانتكم : أى على تمكنكم واستطاعتكم .

## المعنى الجملى

بعد أن قص عز وجل قصص أشهر الأنبياء مع أمهم الماضين - بين هنا مالذلك من فائدة لرسوله وللمؤمنين وهى تثبيت القواد والعظة والاعتبار ، ثم أمر رسوله بالعبادة والتوكل عليه وعدم المبالاة بعداوة المشركين والسكران له .

## الإيضاح

( وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ) أى وكل نبأ من أنباء الرسل المتقدمين من قبلك مع أمهم ، وما جرى لهم من المحاجات والخصومات ، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى ، وكيف نصر الله حزبه وخذل أعداءه الكافرين ، نقصه عليك على وجهه لفائدتين :

(١) ( ما ثبت به فؤادك ) أى ما به يقوى فؤادك ويكون ثابتاً كالجليل لتقوم بأعباء الرسالة ونشر الدعوة ، لما لك من الأسوة بإخوانك المرسلين .

(٢) ( وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ) أى وإن فى هذه الأنباء بيان الحق الذى دعا إليه الرسل وهو اعتقاد أنه تعالى واحد مع إخلاص العبادة له وحده والتوبة إليه وترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وفيها موعظة وذكرى للذين يتعظون بما حلّ بأولئك الأمم من عقاب ، وبيان أن ذلك إنما نالهم بسبب الظلم والفساد .

( وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكاتكم ) أى وقل للكافرين الذين لا يؤمنون فلا يتعظون : اعملوا على ما فى مكنتكم وعلى قدر ما تستطيعون من مقاومة الدعوة وإيذاء الداعى والمستجيبين له .

وفى هذا تهديد ووعد لهم بما يلقونه من العذاب جزاء ما كسبت أيديهم .  
( إنا عاملون ) على مكاتنا وعلى قدر ما نستطيع من الثبات على الدعوة وتنفيذ أمر الله وطاعته .

( وانتظروا إنا منتظرون ) أى وانتظروا بنا ماتمنونونه من انشاء أمرنا إماموت أو غيره مما تحدّثون به أنفسكم كما حكى الله عنهم فى قوله : « أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَبُّنَا الْمُتَنُونِ » إنا منتظرون أن ينزل بكم مثل ما نزل بأمثالكم من عقابه تعالى بعذاب من عنده أو بأيدي المؤمنين ، وأن يكفل لنا النصر والغلبة وتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، والله عزيز حكيم ، وقد أنجز وعده ونصر رسوله وأيده ، ونظير الآية قوله تعالى : « فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ » .

( والله غيب السموات والأرض ) أى إنه سبحانه يعلم كل ما هو غائب عن علمك أيها الرسول وعن علمهم ، مما هو فى السموات والأرض ، وهو المالك المتصرف فيه ، وهو العالم بكل ما سيقع فيهما والعالم بوقته الذى يقع فيه .

( وإليه يرجع الأمر كله ) فأمرك وأمرهم لا محالة راجع إليه ، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

( فاعبده وتوكل عليه ) أى وإذا كان أمر كل شئ يرجع إليه فاعبده بإخلاص الدين له وحده ، وادع إلى طاعته واتباع أمره بالحكمة والموعظة الحسنة ، وتوكل عليه فيما لا يدخل فى مَكْنَتِكَ واستقطاعك مما ليس لك سبيل إلى الحصول عليه ، إذ لا يدخل تحت كسبك ولا تناله يدك . والتوكل لا يجدى نفعا بغير العبادة والأخذ بالأسباب المستطاعة ، وبدون ذلك يكون من التمنى السكاذب ، والعبادة لا تكمل إلا بالتوكل إذ به يكمل التوحيد والإخلاص له تعالى .

روى أحمد والترمذى وابن ماجه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني » . وخلاصة ذلك — امتثل ما أمرت به وداوم على التبليغ والدعوة وتوكل عليه فى سائر أمورك ولا تنال بالذين لا يؤمنون ولا يضيق صدرك بهم .

( وما ربك بغافل عما تعملون ) أى وما ربك بغافل عما تعمل أنت أيها النبي ومن اتبعك من المؤمنين من عبادته والتوكل عليه والصبر على أذى المشركين فيوفيكم جزاءكم فى الدنيا والآخرة ، وما يعمل المشركون من الكيد لكم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا وسيجزئهم على أعمالهم يوم تجزى كل نفس بما كسبت ، وقد صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وأظهر دينه على الدين كله .

ربنا لاتزعقلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ، وصل ربنا على خير خلقك محمد وعلى آله وصحبه إلى يوم الدين ، والحمد لله رب العالمين .

### بيان بإجمال للمقاصد الدينية التي حوتها هذه السورة

قد اشتملت هذه السورة على ما اشتملت عليه سابقتها من أصول الدين ومبادئه العامة التي لا يكون المؤمن مؤمنا حقا إلا إذا سلك سبيلها ونهج نهجها ، ومن ذلك :

(١) التوحيد وهو ضربان :

(أ) توحيد الألوهية - وهو أول مادعا إليه محمد صلى الله عليه وسلم ودعا إليه كل رسول قبله ، وهو عبادته تعالى وحده وعدم عبادة أحد معه كما قال : « أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ » فعبادة غيره من الأصنام كحجر وشجر وكوكب أو بشر ولى أو نبي أو شيطان أو ملك إذا توجه العبد إليها توجهها تعبديا ابتغاء النفع أو كشف الضر فى غير الأسباب التي سخرها الله لجميع الناس - كل ذلك كفر لافرق بينه وبين عبادة الأصنام أو الأوثان إذ جميع ما عدا الله فهو عبد وملك له لا يَتَوَجَّهُ بالعبادة إليه .

(ب) توحيد الربوبية - أى اعتقاد أن الله وحده هو الخالق المدبر لهذا الكون والمتصرف فيه على مقتضى حكمته ونظام سنته وتسخيره الأسباب لمن شاء بما شاء ، وكان أكثر المشركين من العرب ومن قبلهم يؤمنون بأن الرب الخالق المدبر واحد ، ولكن يقولون بتعدد الآلهة التي يُتَقَرَّبُ بها إليه توسلا وطلبا للشفاعة عنده .

(٢) إثبات رسالته صلى الله عليه وسلم بالقرآن بتعديدهم بالإتيان بعشر سور مثله

مفتريات ودعوة من استطاعوا من دون الله لمظاهرهم وإعانتهم على الإتيان بها إن كانوا صادقين ، وقوله بعد ذلك : « فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ مَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ » وما جاء في قوله : « تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا » .

(٣) جاءت آيات البعث والجزاء في القرآن لدعوة المشركين إلى الإيمان والاستدلال بها على قدرة الخالق ، ولتذكير المؤمنين به للترغيب والترهيب والموعظة والجزاء كما جاء في قوله : « إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » وقوله : « وَلَنْ نَقُولَ إِنَّكُمْ مَرْجِعُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ » .

(٤) إهلاك الأمم بالظلم كما جاء في قوله لخاتم رسله : « ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ » وقوله : « وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ » .

(٥) سنته تعالى في ضلال الناس وغوايتهم - بأن يكونا بارتكاب أسبابهما من الأعمال الاختيارية والإصرار عليها إلى أن تتمكن من صاحبها وتحيط به خطيئته حتى يفقد الاستعداد للهدى والرشاد .

(٦) من طباع البشر العجل والاستعجال لما يطلب من النفع والخير وما يندّر به من الشر كما قال : « وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَلَهُمْ بَأْخَيْرِ اقْضَى إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ » .

(٧) سنته تعالى في تكوين الخلق وأنه كان أطوارا في أزمنة مختلفة بنظام محكم ولم يكن شيء منه فجائيا بلا تقدير ولا ترتيب كما قال تعالى : « وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ » فكلمة الخلق معناها التقدير المحكم الذي تكون فيه الأشياء على مقادير متناسبة ثم أريد بها الإيجاد التقديرى ؛ فالسماوات السبع

المرئية للناظرين والأجرام السماوية قائمة بسنن دقيقة النظام ، وما فيها من البسائط  
والمركبات الغازية والسائلة والجامدة كذلك ، والكون في جملة قائم بسنة عامة  
في ربط بعضه ببعض وحفظ نظامه ، بأن يبنى بعضه على بعض وهو ما يسميه العلماء  
الجاذبية العامة والجاذبية الخاصة .

(٨) إن الظغيان والركون إلى الظالمين من أمهات الرذائل كما قال : « وَلَا تَطْعَمُوا إِنَّهُ  
بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَيَمَسَّكُمْ الْفَارُ » .

(٩) الاختلاف في طبائع البشر ، فيه فوائد ومنافع علمية وعملية لا تظهر مزاياه  
بدونها ، وفيه مضار وشرور أكبرها التفرق والتعادي به ، وقد شرع الله لهم الدين  
لتكميل فطرتهم والحكم بينهم فيما اختلفوا فيه بكتابه الذي لا مجال فيه للاختلاف ،  
فاستحق الذين يحكمونه فيما يتنازعون فيه رحمته وثوابه ، والذين يختلفون فيه  
سخطه وعقابه .

(١٠) اتباع الإتراف وما فيه من الفساد والإجرام - ذلك أن مثار الظلم والإجرام  
الموجب لهلاك الأمم هو اتباع أكثرها لما أترَفوا فيه من أسباب النعيم والشهوات  
واللذات ، والمتزفون هم مفسدو الأمم ومهلكوها .

وقد علم هذا المهتدون الأولون بالقرآن من الخلفاء الراشدين والسلف الصالحين  
فكانوا مثلاً صالحاً في الاعتدال في المعيشة أو تغليب جانب الخشونة والشدّة على  
الإتراف والنعمة ففتحوا الأمصار وأقاموا دولة عز على التاريخ أن يقيم مثلها باتباع هدى  
القرآن وبيان السنة له وبذلك خرجوا من ظلمات الجهالة إلى نور العلم والعرفان ،  
ثم أضعافاً من خلف من بعدهم من متبعي الإتراف ، وكيف ضلّوا بعد أن استفادوا  
الفنون والعلوم والملك والسلطان ، والله الأمر من قبل ومن بعد .

(١١) إقامة الصلاة في أوقاتها من الليل والنهار ، لأن الحسنات يذهبن السيئات ،  
وأعظم الحسنات الروحية الصلاة لما فيها من تطهير النفس وتزكية الروح .



(١٢) النهى عن الفساد فى الأرض ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهما سياج الدين والأخلاق والآداب .

(١٣) سنه تعالى فى اختبار البشر لإحسان أعمالهم كما قال : « لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا » .

(١٤) أول أتباع الرسل والمصلحين هم الفقراء كما حكى عن قوم نوح « وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ » .

(١٥) التنازع بين رجال المال ورجال الإصلاح فى حرية الكسب المطلقة أو تقييد الكسب بالحلال ومراعاة الفضيلة .

(١٦) من سنه تعالى جعل العاقبة للمتقين وذلك هو الأساس الأعظم فى فوز الجماعات الدينية والسياسية والأمم والشعوب فى مقاصدها وغلبها لخصومها ومناوئها .

(١٧) بيان أن الاختلاف فى الدين ضرورى للعباد كما قال : « وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ » .

(١٨) بيان أن نهى أولى الأحلام عن الفساد يحفظ الأمة من الهلاك كما قال :

« فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ »

## تقدمة لتفسير سورة يوسف

رأينا أن نقدم لك أيها القارىء صورة موجزة تبين لك حال هذا النبي الكريم والعبرة من ذكر قصته فى القرآن العظيم ، لتكون ذكرى للذاكرين ، وسوة للقارئ والسامعين .

### يوسف الصديق : مثل كامل فى عفته

يوسف عليه السلام آية خالدة على وجه الدهر ، تتلى فى صحائف الكون بكرة وعشيا ، تفسر طيب نجاره وطهارة إزاره ، وعفته فى شبابه ، وقوته فى دينه ، وإثاره لآخرته على دنياه ، وأفضل هداية تمثل للنساء والرجال المثل العليا فى العفة والصيانة التى لا تتم لأحد من البشر إلا بصدق الإيمان بالله ومراقبته له فى السر والعلن .

وسورته منقبة عظمى له ، وآية بينة فى إثبات عصمته ، وأفضل مثل عملى يقتدى به النساء فالرجال ، فبتلاوتها يشعر القارىء بما للشهوة الخسيسة على النفس من سلطان ويسمع بأذنه تغلب الفضيلة فى المؤمن على كل رذيلة ، بقوة الإرادة ووازع الشرف والعصمة ؛ ففيها أحسن الأسوة للمؤمنين من الرجال والنساء ، فيها قصة شاب كان من أجل الناس صورة ، وأكملهم بنية ، يخلو بامرأة ذات منصب وسلطان وهى سيدة له وهو عبدها ، يحملها الافتتان بجماله على أن تذلل نفسها له ، وتخون بعلمها فتراوده عن نفسه (وقد جرت العادة حتى فى الطبقات الدنيا منزلة وتربية أن يكون النساء مطلوبات لاطالبات) فيسمعها من حكمتها ، ويربها من كماله وعفته ما هو أفضل درس فى الإيمان بالله والاعتصام بحبله المتين ، وفى حفظه أمانة سيده الذى أحسن مثواه فيقول : « إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ » فتشعر حينئذ بالذل والمهانة ، والتفريط فى الشرف والصيانة ، وتحقير مقام السيادة والكرامة .

إلا أن فيها أعظم دليل على صبره وحلمه وأمانته وعدله ، وحكمته وعلمه ، وعفوه وإحسانه ، فكفى شاهدا على صبره أن إخوته حسدوه فألقوه فى غيابة الجب وأخرجته

السيارة وباعوه بيع العبيد ، وكادت له امرأة العزيز فزُجَّ في السجن فصبر على أذى الإخوة وكيد امرأة العزيز ومكر النسوة ، إذ علم مافى الفاحشة من مفسد ، ومافى العدل والإحسان من منافع ومصالح ، فأثر الأعلى على الأدنى فاختر عقوبة الدنيا بالسجن على ارتكاب الإثم ، وكانت العاقبة أن نجَّاه الله ورفع قدره ، وأذل العزيز وامراته ، وأقرت المرأة والنسوة ببراءته ، ومكَّن له في الأرض وكانت عاقبته النصر ، والملك والحكم ، والعاقبة للمتقين ، قال سبحانه : « وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ، وَلَا أَجْرَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ » .

وأما عدله وأمانته وعلمه وحكمته فقد ظهرت جلياً حين تولى الحكم في مصر أيام السبع السنين العجاف التي أكلت الحرث والنسل وكادت توقع البلاد في المجاعات ، ثم الهلاك المحقق لولا حكمته وعدله بين الناس والسير بينهم بالسوية وعلى الصراط المستقيم بلا جنف ولا ميل مع الهوى .

### مافى قصص يوسف من عبرة

إن في هذه القصة لعبرة أئماً عبرة لعلمية القوم وساداتهم ، رجالهم ونسأهم ، مُجَنِّهَاتِهِمْ وَأَعْفَاءَهُمْ ، من نساء ورجال ، فإن امرأة العزيز لم تكن من قبل غويّة ولا كانت في سيرتها غير عادية ، لكنها ابتليّت بحب هذا الشاب الفاتن الذي وضعه عزيز مصر في قصره ، وخلّى بينه وبين أهله ، فأذلت نفسها له ، بمرأوته عن نفسه فاستعصم وأبى وآثر مرضاة ربه ، فشاع في مصر دورها وقصورها ذلّاله ، وإبأؤه عليها كما قال سبحانه « وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ » .

وقد ذكرناها بالوصف ( امرأة العزيز ) دون الاسم الصريح استعظاما لهذا الأمر منها ، ولاسيا وزوجها عزيز مصر أو رئيس حكومتها ، وقد طلبت الفاحشة من مملوكها

وفتاها الذى هو فى بيتها وتحت كنفها ، وذلك أقيح لوقوعها منها، وهى السيدة وهو المملوك وهو التابع وهى المتبوعة ، وقد جرت العادة بأن نفوس النسوة تعزف عن مثل هذه الدناءة ولا ترضى لنفسها بهذه الذلة التى تشعر بالمساواة لا بالسيادة ، وبالضعفة لا بالعظمة والله فى خلقه شئون .

وقد تضمن وصف النسوة لها بهذا الوصف أنها لم تقتصد فى حبها ولا فى طلبها .  
أما الأولى فقولهن فيها : « قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا » أى قد وصل حبه إلى شغاف قلبها ( الغشاء المحيط به ) وغاض فى سويدائه كما قال شاعرهم :

الله يعلم أن حَبَّكَ مَنَى فى سواد الفؤاد وسط الشغاف

وأما الثانى فقولهن : « تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ » .

فلما سمعت بهذا السكر القولى قابلهن عليه بمكر فعلى فقد جمعتهن وأخرجته عليهن ، فلم يشعرن إلا وأحسن خلق الله قد طلع عليهن بغتة ، فراعهن ذلك الحسن الفتان ، وفى أيديهن ممدى يقطعن بها مما يأكلنه فقطعن أيديهن وهن لا يشعرن بما فعلن مأخوذات بذلك الحسن كما جاء فى قوله سبحانه : « فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ » . قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ، وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيُصْجِنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ » .

فلما هددته بالسجن والإذلال بعد أن هتك سترها وكشفت النسوة فى أمرها وتواطأن معها على كيدها - أثر عليه السلام الاعتقال فى السجن على ما يدعونه إليه من الفحش والخنأ : « قَالَ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ . فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » .

وإنه ليستبين من هذا القصص أن امرأة العزيز كانت مالكة لقياد زوجها الوزير الكبير ، تصرفه كيف شاءت وشاء لها الهوى ، إذ كان فاقدا للغيرة كأمثاله من كبراء الدنيا صغار الأنفس عبيد الشهوات .

قال فى الكشف عند ذكر مارأوا من الشواهد الدالة على براءته : وما كان ذلك إلا باستئصال المرأة لزوجها ، وقتلها منه فى الدروة والغارب ، وكان مطوعة لها ، وجملا ذلولا زمامه فى يدها ، حتى أنساه ذلك ما عاين من الآيات وعمل برأيها فى سجنه لإلحاق الصغار به كما أوعده ، وذلك لما أيست من طاعته ، وطمعت فى أن يذله السجن ويسخره لها هـ .

وإننا نستخلص من هذه القصة الأمور التالية :

- (١) أن النقم قد تكون ذريعة لكثير من النعم ، ففى بدء القصة أحداث كلها أتراح ، أعقبتها نتائج كلها أفرح .
- (٢) أن الإخوة لأب قد توجد بينهم ضغائن وأحقاد ربما تصل إلى تمنى الموت أو الهلاك أو الجوائح التى تكون مصدر النكبات والمصائب .
- (٣) أن العفة والأمانة والاستقامة تكون مصدر الخير والبركة لمن تحلى بها ، والشواهد فيها واضحة ، والعبرة منها ماثلة ، لمن اعتبر وتدبر ونظر بعين الناقد البصير .
- (٤) إن أسها ودعامتها هو خلوة الرجل بالمرأة ؛ فهى التى أثارت طبيعتها وأفضت بها إلى إشباع أنوثتها ، والرجوع إلى هواها وغريزتها ، ومن أجل هذا حرم الدين خلوة الرجل بالمرأة وسفرها بغير محرم ، وفى الحديث « ما اجتمع رجل وامرأة إلا والشيطان ثالثهما » .

وإننا نرى فى العصر الحاضر أن الداء الدوى ، والفساد الخلقى ، الذى وصل إلى الغاية ( وكلنا نلمس آثاره ، ونشاهد بلواه ) ما بلغ إلى ما نرى إلا باختلاط الرجال بالنساء فى المراقص والملاهى ، والاشتراك معهم فى المفاصد والمعاصى كعاقرة الخمر ، ولعب القمار فى أندية الخزى والعار ، وسباحة النساء مع الرجال فى الحمامات المشتركة .

وبعد فهل لهذه البلوى من يفرّج كربتها ، وهل لهذا الليل من يزيل ظلامه ، وهل لهذه الجراح من آس وهل لهذه الفوضى من علاج ، ولهذا الطامة من يقوم بحمل عبئها عن الأمة ويكون فيه من الشجاعة ما يجعله يرفع الصوت عالياً بالزوع عن تلك الغواية ، ويرد أمر المجتمع والحرص على آدابهِ إلى ماقرره الدين وسار عليه سائر المسلمين المتقين ، فيصلح أمره وتزهو الفضيلة وتنشأ نابتةٌ جديدةٌ تقوم على حراسة الدين في بلاد المسلمين ، والله الأمر من قبل ومن بعد .

هدانا الله إلى سبيل الفلاح ، وسدد خطانا إلى طريق النجاح ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

## سورة يوسف عليه السلام

هى مكية ، وآياتها إحدى عشرة ومائة ، والمناسبة بينها وبين سورة هود أنها متممة لما فيها من قصص الرسل والاستدلال بذلك على كون القرآن وحياً من عند الله دالاً على رسالة محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ، والفرق بين القصص فيها وفيما قبلها ، أن السابق كان قصص الرسل مع أقوامهم فى تبليغ الدعوة والمحااجة فيها وعاقبة من آمن منهم ومن كذبهم لإذارا مشركى مكة ومن تبعهم من العرب .

وأما هذه السورة فهى قصة نبي ربي فى غير قومه قبل النبوة وهو صغير السن حتى بلغ أشده واكتهل فنبيء وأرسل ودعا إلى دينه ثم تولى إدارة الملك لقطر عظيم فأحسن الإدارة والسياسة فيه وكان خير قدوة للناس فى رسالته وفى جميع ما دخل فيه من أطوار الحياة وتصريف أمورها على أحسن ما يصل إليه العقل البشرى ، ومن أعظم ذلك شأنه مع أبيه وإخوته آل بيت النبوة ، وكان من حكمة الله أن يجمعها فى سورة واحدة ، ومن ثم كانت أطول قصة فى القرآن الكريم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ (٣) .

### المعنى الجملى

جاءت فاتحة هذه السورة كفاتحة سورة يونس ، خلا أن القرآن وصف هنا بالمبين وهناك بالحكيم ؛ ذلك أن موضوع الأولى قصص نبي تقلبت عليه صروف الزمان بين نحوس وسعود كان فى جميعها خير أسوة ، وموضوع الثانية أصول الدين من توحيد الله

وإثبات الوحي والرسالة والبعث والجزاء ، وهذه يناسبها الوصف بالحكمة .

وروى عن سعد بن أبي وقاص في سبب نزولها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم  
غبر يثلو القرآن زمانا على أصحابه فقالوا يارسول الله لو قصصت علينا فيكون في ذلك  
ترويح لنفوسنا وإحاطة بما يتضمنه من عبر وعظات .

## الايضاح

(الر) تقدم الكلام في هذا بما فيه الكفاية .

(تلك آيات الكتاب المبين) أى آيات هذه السورة هى آيات الكتاب المبين  
الظاهر بنفسه ، والمُظهِر لما شاء الله من حقائق الدين وأحكام التشريع وخفايا الملك  
والملكوت وأسرار النشأتين والمرشد إلى مصالح الدنيا وسبيل الوصول إلى سعادة الآخرة  
(إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) أى إنا أنزلنا هذا الكتاب على النبي  
العربي ، ليبين لكم بلغتكم العربية ما لم تكونوا تعلمونه من أحكام الدين وأنباء الرسل  
والحكمة وشئون الاجتماع وأصول العمران وأدب السياسة ، لتعقلوا معانيه وتفهموا  
ما ترشد إليه من مطالب الرُوح ومدارك العقل وتزكية النفس وإصلاح حال الجماعات  
والأفراد بما فيه سعادتهم في دنياهم وآخرتهم .

(نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت  
من قبله لمن الغافلين) أى نحن نقص عليك ونحدثك أحسن ما يُقَصُّ ويتحدث عنه  
موضوعا وفائدة ، لما يتضمنه من العبر والحكم ، بإيجائنا إليك هذه السورة من القرآن  
الكريم ، إذ هى الغاية فى بلاغتها وتأثيرها فى النفس وحسن موضوعها ، وقد كنت  
من قبل ذلك فى زمرة الغافلين عنه من قومك الأميين الذين لا يَحْطُرُّ فى بالهم التحديث  
بأخبار الأنبياء وأقوامهم وبيان ما كانوا عليه من دين وشرع كيَعْقُوب وأولاده وهم  
فى بداوتهم ولما كان فيه المصريون الذين جاء يوسف إليهم من حضارة وترف ،



ولما حدث له فى بعض بيوتات الطبقة الراقية ، ولاحاله فى سياسة الملك وإدارة شئون الدولة وحسن تنظيمها .

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا  
وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤) قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ  
عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٥)  
وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ، وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ  
عَلَيْكَ وَعَلَى آلٍ يَعْقُوبَ ، كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ  
إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦)

### تفسير المفردات

لأبيه : هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، روى أحمد والبخارى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الكريمن الكريمن بن الكريمن يوسف بن يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم » . أحد عشر كوكبا : هم إخوته وكانوا أحد عشر نفرا ، والشمس والقمر : أبوه وأمه ، والسجود : من سجد البعير ، إذا خفض رأسه لراكبه حين ركوبه ، وكان من عادة الناس فى تحية التعظيم بفلسطين ومصر وغيرها الانحناء مبالغة فى الخضوع والتعظيم ، وقد استعمله القرآن فى انقياد كل المخلوقات لإرادة الله وتسخيره ، ولا يكون السجود عبادة إلا بالقصد والنية للتقرب إلى من يعتقد أن له عليه سلطانا غيبيا فوق سلطان الأسباب المهودة ، وقص الرؤيا : الإخبار بها على وجه الدقة والإحاطة ، وكاد له إذا دبر الكيد لأجله لمضرته أو لمنفعته كما قال « كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ » . والاجتماع من جيب الشئ : إذا حصلته لنفسك والتأويل : الإخبار بما يؤول إليه الشئ فى الوجود ، وسميت الرؤيا أحاديث باعتبار حكايتها والتحديث بها ، والآل أصلها

أهل ، وهو خاص بمن لهم شرف وخطر في الناس كآل النبي صلى الله عليه وسلم وآل الملك .

### المعنى الجملى

هذه الآيات الثلاث في قصّ يوسف رؤياه على أبيه وهو صغير ، وفيما أجابه به أبوه من منعه عن قصه لإخوته خيفة الحسد والكيد له ، وفي تعبير تلك الرؤيا له ، وما فيها من البشارة وحسن العاقبة وأنه سيكون له شأن عند الله وعند الناس ، وقد شغف أبوه بحبه وتعلق به أمله وكان ذلك بدء الما جدّله من أحداث ضر وبؤس ، ثم عاقبة حميدة كانت ذكرى للذاكرين وعبرة للمعتقين ، ولم يذكر ذلك إلا في أواخر السورة ، وقد احتذى هذا الأسلوب كثير ممن وضعوا كتب القصص (الروايات) فتراهم يبدءون بذكر نبأ هامّ يشغل بال القارئ ويحيره في فهم علله وأسبابه ومايزالون يتدرجون به من حال إلى حال ومن شرح معتمى وكشف خفيّ رويدا رويدا بأمانة وحذق حتى يشرحوا ذلك النبأ في نهاية القصص

### الايضاح

( إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين ) أى قال يوسف لأبيه يعقوب إنى رأيت فى منامى . أحد عشر كوكبا والشمس والقمر لى سجداً ، وقد علم أبوه أن هذه رؤيا إلهام ، لا أضغاث أحلام ، تأثيرها فى النوم الهواجس والأفكار ، وأن يوسف سيكون له شأن عظيم وسلطان يسود به أهله حتى أباه وأمه وإخوته ، وخاف أن يسمع إخوته ماسمعه ويفهموا مافهمه ، فيحسدوه ويكيدوا لإهلاكه ، ومن ثم نهاه أن يقص عليهم رؤياه كما دل على ذلك قوله :

( قال يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا ) أى لا تخبر

إخوتك بما رأيت في منامك خيفة أن يحسدوك فيحتالوا للإيقاع بك بتدبير يحكمونه بالتفكير والرؤية .

ثم بين السبب النفسى لهذا الكيد بقوله :

(إن الشيطان للإنسان عدو مبين) أى إن الشيطان عدو لآدم وبنيه ، قد أظهر لهم عداوته فاحذر أن يغرى إخوتك بك بحسدهم لك إن أنت قصصت عليهم رؤياك ، إذ من دأبه أن ينزغ بين الناس حين تعرض لهم داعية من هوى النفس ولا سيما الحسد الغريزى فى فطرة البشر ، وقد أرشد إلى هذا يوسف بقوله « مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي » .

(وكذلك يجتبيك ربك) أى وكما أراك ربك السكواكب والشمس والقمر سجداً لك ، يجتبيك لنفسه ويصطفيك على آلتك وغيرهم بفيض إلهى يكملك به بأنواع من المكرمات بلا سعى منك فتكون من المخلصين من عباده .

(ويعلمك من تأويل الأحاديث) أى ويعلمك من علمه اللدنى تأويل الرؤيا وتعبيرها أى تفسيرها بالعبارة والإخبار بما تنول إليه فى الوجود كما حكى الله قول يوسف لأبيه « هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا » .

وتعليم الله تعالى يوسف التأويل : إعطاؤه إلهاماً وكشفاً لما يراد ، أو فراسة خاصة فيها ، أو علماً أعم من ذلك كما يدل عليه قوله لصاحبي السجن « لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأٌ نَكَمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي » .

(ويتم نعمته) وعلى آل يعقوب (أى ويتم نعمته عليك باجتماعه إياك واصطفائك بالنبوة والرسالة) ، وعلى أبيك وإخوتك وذريتهم بإخراجهم من البدو وتبوءهم مقاماً كريماً فى مصر ثم فى تسلسل النبوة فى أسباطهم حيناً من الدهر .

(كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق) أى كما أتم النعمة من قبل هذا العهد على جدك وجد أبيك ، وقدم إبراهيم لأنه الأشرف منهما والعرب وغيرها تفعل ذلك وقد كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم يابن عبد المطلب

وقد قال يعقوب ذلك لما كان يعلمه من وعد الله لإبراهيم باصطفاء آله وجعل النبوة والكتاب فى ذريته ، وما علمه من رؤيا يوسف وأنه الحلقة الأولى فى السلسلة النبوية التى ستكون من بعده من أبنائه .

(إن ربك عليم حكيم) أى إن ربك عليم بمن يصطفيه ومن هو أهل للفضل والنعمة فيسخر له الأسباب التى تبلغ به الغاية إلى ما يريد له ، حكيم فى تدبيره فيفعل ما يشاء جريا على سنن علمه وحكمته .

وخلاصة ما تقدم — إن يعقوب عليه السلام فهم من هذه الرؤيا فهما مجليا كل ما بشر به ابنه يوسف الرأى لها ، وأما كيد إخوته له إذا قصها عليهم فقد استنبطه من طبع البشر وعداوة الشيطان له ، ثم قفى على ذلك ببشارته بما تدل عليه الرؤيا من اجتهاء ربه ومن تأويل الأحاديث وهو الذى سيكون وسيلة بينه وبين الناس فى رفعة قدره وعلو مقامه وإتمام نعمته عليه بالنبوة والرسالة كما كان ذلك لأبويه من قبله .

لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلِّسَّائِلِينَ (٧) إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ غُصْبَةٌ ، إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (٩) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (١٠)

### المعنى الجملى

صدر سبحانه هذا القصص بمقدمتين : أولاها فى وصف القرآن وكونه تنزيلا من عند الله دالاً على رسالة من أنزل عليه وكون النبي صلى الله عليه وسلم كان من قبله

غافلا عما جاء فيه لا يدري منه شيئا . ثانيتها رؤيا يوسف وما فهمه منها أبوه فهما جلياً  
وبنى عليه تحذيره وإنذاره وما يستهدف له من كيد إخوته ثم تبشيره بحسن العاقبة ،  
ثم بنى على الأولى قوله بعد تمام القصة « ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ » وبنى على الثانية  
قوله لأبيه بعد دخولهم عليه وسجودهم له « يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ  
جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا » .

## الايضاح

( لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين ) أى لقد كان في قصة يوسف وإخوته  
لأبيه عِبَرٌ أيما عبر دالة على قدرة الله وعظيم حكمته وتوفيق أقداره ولطفه بن اصطفى من  
عباده ، وتربيته لهم ، للسائلين عنها الراغبين في معرفة الحقائق والاعتبار بها ، فإنهم  
هم الذين يعقلون الآيات ويستفيدون منها .

تأمل: تر أن إخوة يوسف لو لم يحسدوه لما ألقوه في غيابة الجب ، ولو لم يلقوه فيها  
لما وصل إلى عزيز مصر ، ولو لم يعتقد العزيز بصادق فراسته أمانته وصدقه لما أمّنه على  
بيته ورزقه وأهله ، ولو لم تراوده امرأة العزيز عن نفسه ويستعصم منها لما ظهرت نزاهته  
ولو لم تغفل في كيدها وكيد صومجباتها لما أُلقي في السجن ، ولو لم يُسجن ما عرفه ساقى  
ملك مصر وعرف صدقه في تعبیر الرؤيا وإرشاد ملك مصر إليه فأمن به وجعله على  
خزان الأرض ، ولو لم يتبوا هذا المنصب ما أمكنه أن ينقذ أبويه وإخوته وأهله أجمعين  
من الجوع والخمصة ويأتى بهم إلى مصر فيشاركوهم فيما ناله من عز وبذخ ورخاء عيش  
ونعيم عظيم ، وما من مبدأ من هذه المبادئ إلا كان ظاهره شرا مستطيرا ، ثم انتهى  
إلى عاقبة كانت خيرا وفوزا مبيّنا .

فذلك ضروب من آيات الله في القصة لمن يريد أن يسأل عن أحداثها الحسية  
الظاهرة وعلومها الباطنة كعلم يعقوب بتأويل رؤيا يوسف وعلمه بكذبهم في دعوى  
أكل الذئب له ، ومن شمه لريح يوسف منذ فصلت العير من أرض مصر ذاهبة إلى

أرض كنعان ، ومن رؤية برهان ربه ، ومن كيد الله له ليأخذ أخاه بشرع الملك ، ومن علمه بأن إلقاء قميصه على أبيه يعيده بصيرا بعد عمى بقى كثيرا من السنين .

( إذ قالوا ليوسف وأخوه أحبّ إلى أبينا منا ونحن عصبة ) أى إن فى شأنهم لعبرة حين قالوا : ليوسف وأخوه شقيقه بنيامين أحب إلى أبينا منا فهو يفضلهما علينا بمزيد محبة على صغرها وقليل نفعهما ، ونحن رجال أشداء أقوياء نقوم بكل ما يحتاج إليه من أسباب الرزق والكفاية .

( إن أبانا لفي ضلال مبين ) أى إن أبانا لقد أخطأ فى إثارة يوسف وأخاه من أمه علينا بالحبّة ، وهو قد ضل طريق العدل والمساواة ضلالا بيّنا لا يخفى على أحد ، فكيف يفضل غلامين ضعيفين لا يقومان له بخدمة نافعة على العصبة أولى القوة والسكسب والحماية عن الذمار .

وفى الآية من العبرة وجوب عناية الوالدين بمداواة الأولاد وتربيتهم على المحبة واتقاء وقوع التحاسد والتباغض بينهم واجتناب تفضيل بعضهم على بعض بما يعده المفضل إهانة له ومحابة لأخيه بالهوى .

( اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا ) أى قال إخوة يوسف بعضهم لبعض : اقتلوا يوسف حتى لا يكون لأبيه أمل فى لقائه ، أو انبذوه فى أرض بعيدة عن العمران بحيث لا يهتدى إلى العودة إلى أبيه إن هو سلم من الهلاك .

( يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين ) أى يخل لكم وجه أبيكم من شغله بيوسف فيكن كل توجهه إليكم وكل إقباله عليكم ، بعد أن تخلوا الديار من يشغله عنكم أو يشارككم فى عطفه وحبّه وتكونوا من بعده قوما صالحين تائبين إلى الله مصلحين لأعمالكم بما يكفر إثمها مع عدم التصدى لثلاثها ، وبذا يرضى عنكم أبوكم ويرضى عنكم ربكم .

( قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين ) الجب : البئر غير المبنية بالحجارة ، وغيابته : ما يغيب عن رؤية البصر

من قعره ، والسيارة جماعة المسافرين الذين يسرون في الأرض من مكان إلى آخر للتجارة أو غيرها .

أى قال قائل منهم وهوروين : لا تقتلوا يوسف وألقوه في قعر البئر حيث يغيب خبره فيلتقطه بعض المسافرين ويأخذوه إلى حيث ساروا في الأقطار البعيدة ، وبذا يتم لكم ما تريدون ، وهو إبعاده عن أبيه إن كنتم فاعلين ما هو المقصد لكم بالذات ، إذ لاشك أن قتله لا يعينكم لذاته ، فعلام تَسْخِطُونَ خالقكم باقتراف جريمة القتل والغرض يتم بدونها ؛ وجاء في سفر التكوين من التوراة أن رو بين مكربهم إذ كان يريد إخراجهم من الحب وإرجاعهم إلى أبيه فإنهم وضعوه في بئر لا ماء فيها ، فمرت بها سيارة من تجار العرب مسافرة إلى مصر ، فاقترح عليهم يهوذا إخراجهم وبيعه لهم ، إذ لا فائدة لهم من قتله وهو من لحمهم ودمهم ففعلوا .

قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١)  
أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٢) قَالَ إِنِّي  
أَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ ، وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ  
غَافِلُونَ (١٣) قَالُوا إِنَّ أَكْلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ (١٤)

### تفسير المفردات

الناصح : المشفق المحب للحير ، والرتع : الاتساع في الملاذ ، والمراد باللعب لعب المسابقة والاتصال بالسهم ونحوهما مما يتدرب به لمقاتلة الأعداء وتعليم فنون الحرب ، والحزن : ألم النفس من فقد محبوب أو وقوع مكروه ، والخوف : ألم النفس من توقع مكروه قبل وقوعه ، والعصبة : الجماعة التي تُعَصَّبُ بها الأمور ، وتكفى بأرأسها الخطوب وخاسرون : ضعفاء عاجزون ، أو هالكون لا غناء عندهم ولا نفع .

## المعنى الجملى

هذا بيان حىء به لبيان ما كادوا به أباهم بعد أن ائتمروا بـيوسف ليرسله معهم ، وفيه إيماء إلى أنه كان يخافهم عليه ، ولولا ذلك ما قال لهم تلك المقالة التى أظهرها فيها أنهم فى غاية المحبة والشفقة له .

## الإيضاح

( قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون ) أى قالوا له : لم نخافنا عليه ونحن نحبه ونريد الخير به ونخلص النصيح له ؟ وكانوا قد شعروا منه بهذا بعد ما كان من رؤيا يوسف ، وربما علموا بهذا منه .

( أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون ) أى أرسله معنا غدا غدا حين نخرج كما دتتنا إلى المرعى فى الصحراء يشاركنا فى الرياضة والأنس والسرور وأكل الفواكه والبقول وغيرها مما يطيب ، وقد كان أكثر لعب أهل البادية السباق والصراع والرمى بالعصى والسهم إن وجدت ، وإنا لحافظوه من كل أذى يصيبه .

( قال إني ليحزننى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون ) أى قال محببهم : إني ليحزننى ويقض على مضجعى أن تذهبوا به معكم إلى الصحراء خيفة أن يأكله الذئب وأنتم لا تشعرون به ، لاشتغالكم عن مراقبته وحفظه بـلعبكم ، وأعله لو لم يذكر هذا لهم لما خطر ببالهم أن يقع ، ولكن شدة الحذر والاحتياط هو الذى جعله يقول ذلك .

( قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون ) أى قالوا له والله لئن اختطفه منا الذئب فى الصحراء ونحن جماعة شديدة البأس تكفى بنا الخطوب وتُدفع مهمات الأمور — إنا إذاً لهالكون ولا غناء عندنا ولا نفع ولا ينبغى أن يُعتدَّ بنا ويُركن إلينا .



فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ ، وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٥) وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا نَاذِهِبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ، قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (١٨)

### تفسير المفردات

أجمعوا : أى عزموا عزمًا لا يرد فيه ، وأوحينا إليه : أى ألهمناه كما فى قوله : « وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى » والعشاء : من الغروب إلى العتمة : أى حين يخالط سواد الليل بقية بياض النهار ، والاستباق : تكلف السبق فى العدو أو فى الرعى ، والمتاع : فضل الثياب وماعون الطعام والشراب ، ومؤمن : أى مصدق ، وسولت : زينت وسهلت ، والصبر الجميل : مالا شكوى فيه إلى الخلق ، على ماتصفون : أى من هذه المصيبة وعظيم الرزء .

### المعنى الجملى

جاءت هذه الآيات الأربع لبيان ما اعتزموا عليه ونفذوه بالفعل وماءتذروا به لأبيهم من كذب ، وما قابلهم به من تكذيب وصبر واستعانة بالله عز وجل .

### الايضاح

( فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب وأوحينا إليه لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ) أى فلما ذهب به إخوته من عند أبيه بعد مراجعتهم له وقد عزموا عزمًا

إجماعيا لاتردد فيه على إلقائه في غيابة الحب ، نفذوا ذلك وحينئذ أوحينا إليه وحيا إلهاميا تطيبيا لقلبه وتثبيتا لنفسه : لاتحزن مما أنت فيه ، فإن لك من ذلك فرجا ، ومخرجا حسنا ، وسينصرك الله عليهم ، ويرفع درجتك ، وستخبرهم بما صنعوا وهم لا يشعرون بأنك يوسف .

وفي هذا إيحاء إلى أنه سيخلص من هذه المحنة ويصيرون تحت سلطانه وقهره .  
( وجاءوا أباهم عشاء يبكون . قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ) أى جاءوه وقت العشاء حين خالط سواد الليل بياض النهار - حال كونهم يبكون ليقنعوه بما يريدون قائلين له : إنا ذهبنا من موضع اجتماعنا نتسابق ونترامى بالنبال ، وتركنا يوسف عند ثيابنا وأزوادنا ليحفظا ، إذ لا يستطيع مجاراتنا في استباقنا الذى يُرهق القوى فأكله الذئب ، إذ بعدنا عنه ولم نسمع استغاثته ولا صراخه ، ونحن نعلم أنك لانصدقنا ولو كنا عندك صادقين ، فكيف وأنت تتهمنا في ذلك ؟ ولك العذر في هذا الغرابة ما وقع ، وعجيب ما اتفق لنا في ذلك الأمر .

( وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ) أى إنهم جاءوا بقميصه مُلَطَّخًا ظاهره بدم غير دم يوسف ، وهم يدعون أنه دمه ، ليشهد بصدقهم ، فكان دليلا على كذبهم ، ومن ثم قال : ( على قميصه ) ليستبين للقارئ والسامع أنه موضوع وضعا متكلفا ، إذ لو كان من افتراس الذئب لتمزق القميص ، وتغلغل الدم في كل قطعة منه ، ومن أجل هذا كله لم يصدقهم وقال : هيهات ، ليس الأمر كما تدعون ، بل سهلت لكم أنفسكم الأمارة بالسوء أمرا نكرا وزينته في قلوبكم فطوعته لكم حتى اقترتموه ، وسأصبر صبرا جميلا على هذا الأمر الذى اتفقتم عليه حتى يُفرّجه الله بعونه ولطفه ، وإني أستعين به على أن يكفيني شر ما تصفون من الكذب .

وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ ، قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا  
غَلَامٌ وَأَسْرُوهُ بَضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ  
دَرَاهِمَ مَمْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠)

### تفسير المفردات

السيارة : الرقعة تسير معا ، والوارد : الذى يرد الماء ليستقى للقوم ، وأسروه : أى  
أخفوه من الناس ، والبضاعة : القطعة من المال يُفْرَزُ للتجار به ، وشرى الشيء : باعه  
واشتراه : ابتاعه ، والبخس : الناقص والمعيب كما قال «وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ»  
والمراد هنا الحرام أو الظلم لأنه بيع حر .

### المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أن إخوة يوسف أجمعوا امرهم على إلقائه في غيابة الحب  
ونفذوا ذلك ، ذكر هنا طريق خلاصه من تلك الحنة بمجيء قافلة من التجار ذاهبة  
إلى مصر ، فأخرجوه من البئر وباعوه في مصر بثمن بخس

### الإيضاح

( وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بشرى هذا غلام وأسروه بضاعة  
والله عليم بما يعملون ) أى وجاءت ذلك المكان قافلة تسير من مَدَيْنِ إلى مصر فأرسلوا  
واردهم الذى يجلب لهم الماء للاستسقاء فأرسل دلوه ودلّاه في ذلك الحب فتعلق  
به يوسف ، ولما خرج ورآه قال مبشراً جماعته السيارة : يا بشرى هذا غلام أى آن وقت  
البشرى فاحضرى ، كما يقال يأسفا وياحسرتا إذا وقع ما هو سبب لذلك فاستبشرت به  
السيارة وأخفوه من الناس ، لئلا يدّعيه أحد من أهل ذلك المكان لأجل أن يكون  
بضاعة لهم من جملة تجارتهم ، والله عليم بما يعمل هؤلاء السيارة وما يعمل إخوة يوسف ،

فلـكل منهم مقصد خاص في يوسف ، فالسيارة يدَّعون بالباطل أنه عبد لهم فيتـجرون به ، وإخوة يوسف يريدون إخفاءه عن أبيه ويدَّعون أن الذئب قد أكله ، وذلك كيد بالباطل ، ليمضى فيه وفيهم حكمه السابق في علمه ، وليرى إخوة يوسف ويوسف وأبوه قدرته تعالى على تنفيذ ما أراد .

وفي هذا تذكير من الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وتسليية له على كان يلقي من أقربائه وأنسابه المشركين من الأذى فكأنه يقول له : اصبر على ما نالك في الله ، فإنى قادر على تغيير ذلك ، كما قدرت على تغيير ما لقي يوسف من إخوته ، وسيصير أمرك إلى العلو عليهم كما صار أمر يوسف مع إخوته إذ صار سيدهم .

( وشروه بثمان بـخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين ) أى وباعه السيارة في مصر بثمان قليل ناقص عن ثمن مثله من الدراهم القليلة التى تعد عداً ولا توزن وزناً ، وكانوا لا يزنون إلا ما بلغ الأوقية ( أربعين درهماً ) فما فوقها ويعدون مادونها ، ومن ثم يعبرون عن القليل بالمعدود ، وفي سفر التكوين من التوراة أن إخوته قرروا بيعه للإسماعيلين أى للعرب ، وقد أخرجه من الحب جماعة من أهل مدين وباعوه لهم ، وكان الذين باعوه من الراغبين عنه الذين يبيعون الخلاص منه ، لثلا يظهر من يطالبهم به لأنه حر ، والتمن لم يكن مقصوداً لهم حين بيعه ومن ثم قنعوا بالبـخس منه .

وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَأَمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ، وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ، وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢)

## تفسير المفردات

المثوى : مكان الثواء والإقامة ، مكنا ليوسف : أى جعلنا له مكانة رفيعة فى أرض مصر ، من تأويل الأحاديث : أى بعض تعبير الرؤيا التى عُمدَتْهَا رؤيا الملك وصاحبى السجن ، وغالب على أمره . أى لا يُمنع عما يشاء ولا يَنازَعُ فيما يريد ، وأشدّه : هو رشده وكال قوته باستكمال نموه الجسمانى والعقلى حكما أى حكما صحيحا يزن به الأمور بميزان صادق ، وعلمها بحقائق الأشياء .

## المعنى الجملى

هاتان الآيتان مبدأ قصص يوسف فى بيت العزيز الذى اشتراه ، وفيهما بيان تمسكين الله له وتعليمه تأويل الأحاديث وإيتائه حكما وعلمها وشهادة من الله له بأنه من زمرة المحسنين .

## الايضاح

( وقال الذى اشتراه من مصر لامراته أكرمى مثواه ) لم يبين الكتاب الكريم اسم الذى اشتراه فى مصر ولا منصبه ولا اسم امرأته ، لأن ذلك لا يهتم فى العبرة من القصة ولا يزيد فى العظة ، ولكن لقبه النسوة فيما يأتى ( بالعزيز ) وهو اللقب الذى لقب به يوسف بعد أن تولى إدارة الملك فى مصر ، والظاهر أنه لقب أكبر وزراء الملك ، وفى سفر التكوين أنه كان رئيس الشرط وحامية الملك ، وناظر السجون ، وأن اسمه فوطيفار وقد تفرس هذا الوزير فيه أصدق الفراسة ، إذ وصّى امرأته بإكرام مثواه أى بحسن معاملته فى كل شئونه حتى يكون كواحد منهم ولا يكون كالعبيد والخدم .

وخلاصة ما قال — أحسنى تعهده ، وانظرى فيما يقتضيه إكرام الضيف على أبلغ وجه وأتمه .

وروى عن عبد الله بن مسعود أنه قال : أفرس الناس ثلاثة : عزيز مصر حين قال لامرأته ( أكرمي مثواه ) والمرأة التي قالت لأبيها ( يا أبت استأجره ) الآية وأبو بكر حين استخلف عمر بن الخطاب رضى الله عنهما .

ثم بين علة إكرامه برجائه فيه وعظيم أمله في جليل مساعدته فقال :  
( عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ) أى عله أن ينفعنا في أمورنا الخاصة إذا تدرّب فيها وعرف مواردها ومصادرها أو شئون الدولة العامة لما يلوح عليه من مخايل الذكاء والنجابة ، أو تنبأه وقيمه مقام الولد فيكون قرة عين لنا ووارثا لنا ومجدنا ، إذا تم رشده ونضج عقله . وفى الآية إيماء إلى شيئين .

(١) إن العزيز كان عقيما .

(٢) إنه كان صادق الفراسة ثاقب الفكر ، فقد استدل من كمال خلقه وخلقه على أن حسن عشرته وكرم وفادته وشرف تربيته مما يكمل استعداد الفطرى ، فالتجارب دلت على أنه لا يفسد الأخلاق شيء أكثر مما تفسدها البيئة الفاسدة وسوء القدوة ( وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ) أى وعلى ذلك النحو من التدبير جعلنا ليوسف مكانة عالية فى أرض مصر كان مبدؤها عطف العزيز عليه ورجاءه فيه ، فوقع له فى بيته ثم فى السجن من الأحداث ما كان سببا فى اتصاله بساقى الملك ثم بالملك نفسه . ( ولنعلمه من تأويل الأحاديث ) أى ولنعلمه بعض تعبير الرؤيا ، ومعرفة حقائق الأمور ، مما ينتهى إلى غاية التمكن لدى الملك ، حتى ليقول له : « أَجْمَلَنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ » ويقول له الملك « إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ » ( والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ) أى والله غالب على كل أمر يريد ، فلا يُغلب على شيء منه ، بل يقع كما أراد « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » فما حدث من إخوة يوسف له وما فعله مسترقوه وبائعوه وما وصّى به الذى اشتراه امرأته من إكرام مثواه ، وما وقع له مع هذه المرأة من الأحداث ومن دخوله السجن - قد كان من الأسباب التى أراد الله تعالى له بها التمكن

فى الأرض ، ولكن أكثر الناس يأخذون الأمور بظواهرها كما زعم إخوة يوسف أنه لو أبعد يوسف عنهم خلاهم وجه أبيهم وكانوا من بعده قوما صالحين ، وقوله : أكثر الناس ، إيماء إلى أن الأقل يعلمون ذلك كيعة قوب عليه السلام ، فإنه يعلم أن الله غالب على أمره ، فهاهى ذى أقواله السابقة واللاحقة صريحة فى ذلك ، ولكن علمه إجمالى لاتفصلى ، اذ لا يحيط بما تحبته الأقدار .

وبعد أن بينَّ سبحانه أن إخوة يوسف أساءوا إليه وصبر على تلك الشدائد حتى مكن الله له فى أرض مصر ، بين هنا أنه آتاه الحكم والعلم حين استكمال سن الشباب وبلوغ الأشد ، وأن ذلك جزاء منه سبحانه على إحسانه فى سيرته فقال عز اسمه :

( ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما ) أى ولما بلغ سن رشد كمال قوته باستكمال نموه البدنى والعقلى ، وهبناه حكما صحيحا فيما يعرض له من مهام الأمور ، ومشكلات الحوادث ، مقروننا بالحق والصواب ، وعلما لدنيا وفكريا بما ينبغى أن تسير عليه الأمور . وقدّر الأطباء هذه السن بخمس وعشرين سنة ، وقد أثبت علماء الاجتماع أن الاستعداد الإنسانى يظهر رويدا رويدا حتى إذا ما بلغ المرء خمساً وثلاثين سنة وقف عند هذا الحد ولم يظهر فيه شىء جديد غير ماظهر من بدء سن التمييز إلى هذه السن ولهذا قال ابن عباس إنها ثلاث وثلاثون سنة .

( وكذلك نجزي الحسنين ) أى ومثل ذلك الجزاء العظيم نجازى به المتعلمين بصفة الإحسان الذين لم يدنسوا أنفسهم بسيئات الأعمال ، فتوثيهم نصيبا من الحكم بالحق والعدل ، وعلما يظهره القول الفصل ، إذ يكون لذلك الإحسان تأثير فى صفاء عقولهم ، وجودة أفهامهم ، وقصيرهم لحقائق الأشياء غير ما يستفيدون بالكسب من غيرهم ، ولا يتهاى مثل ذلك للمسيئين فى أعمالهم المتبعين لأهوائهم وطاعة شهواتهم .

وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ  
هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ، إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ  
الظَّالِمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ،  
كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤)  
وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ،  
قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥)

### تفسير المفردات

راودته على الأمر مراودة : طلبت منه فعله مع المخادعة ، فالمراد يتلطف في طلبه  
تلطف المخادع ويحرص عليه ، وقال الراغب : المراودة أن تنازع غيرك في الإرادة فتريد  
منه غير ما يريد كما قال إخوة يوسف ( سنراود عنه أباه ) أى نحتال عليه ونخدعه عن  
إرادته ليرسل بنيامين معنا ، وهيت لك بفتح الهاء وكسرهما مع فتح التاء وضما أى  
أى هلم أقبل وبادر ، وقد روى أنها لغة عرب حوران ، واختيرت لأنها أخص ما يؤدى  
المراد مع النزاهة السكاملة ، ومعاذ الله : أى أعوذ وأتحصن بالله من أن أكون من  
الجاهلین الفاسقين ، وهمت به : أى همت لتبسط به لعصيانه أمرها ، وهم بها ليقهرها  
فى الدفع عما أرادته ويرد عنفها بمثله ، وبرهان ربه : إما النبوة التى تلى الحكم والعلم  
الذين آتاه الله إياها بعد بلوغ الأشد ، وإما مراقبة الله تعالى ورؤية ربه متجليا له ناظرا  
إليه كما جاء فى الحديث فى تفسير الإحسان « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه  
فإيه يراك » والمخلصون : هم الذين اجتنباهم الله واختارهم لطاعته ، واستبقا الباب :  
أى تسابقا إلى الباب وقصد كل منهما سبق الآخر إليه ، فهو ليخرج وهى لتمنعه من  
الخروج ، وقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ : أى قطعتة طولاً من خلف ، وألفيا : أى وجدا .



## المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه وصية العزيز لامرأته بإكرام مشواه ، وعلل ذلك بحسن الرجاء فيه ثم بين عنايته سبحانه به وتمهيد سبل كماله بتمكينه فى الأرض - ذكر هنا مرادة امرأته له ونظرها إليه بغير العين التى نظر بها زوجها إليه وأرادت منه غير ما أرادته هو وما أراد الله من فوقهما وأعدت العدة لذلك فغلقت الأبواب ؛ فهرب منها إلى باب الخدع فقدت قميصه من خلف ووجدت زوجها بالباب الخارجى فبادرت إلى اتهامه بالسوء إلى أن استبان براءته .

## الإيضاح

( وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه ) أى وخادعت امرأة العزيز يوسف عن نفسه ورواغته ، ليريد منها ما تريد هى منه مخالفا لإرادته وإرادة ربه ، والله غالب على أمره ، قال فى الكشف : كأن المعنى خادعته عن نفسه ، أى فعلت ما يفعل الخادع لصاحبه عن شىء لا يريد إخراجه من يده وهو يحتال أن يأخذه منه ، وهى عبارة عن التملح فى مواقفته إياها اه .

( وغلقت الأبواب ) أى وأحكمت إغلاق باب الخدع الذى كان فيه وباب البهو الذى يكون أمام الغرف فى بيوت العظاماء وباب الدار الخارجى وربما كان هناك غيرها . ( وقالت هيت لك ) أى وقالت هلم أقبل ، وزيدت كلمة ( لك ) لبيان المخاطب كما يقولون : سقيا لك ورعيا لك ، وهذا الأسلوب هو الغاية فى الاحتشام فى التعبير ، وقد يكون هناك ما زادته من إغراء وتهيبج مما تقتضيه الحال . وما نقل من الإسرائيليات عنها وعنه من الوقاحة فكذب ، فمثل هذا لا يعلم إلا من الله أو من الرواية الصحيحة عنها أو عنه ، ولا يستطيع أحد أن يدعى ذلك .

( قال معاذ الله ) أى أعوذ بالله عز وجل وألتجئ إليه مما تريد منى فهو يعيذنى أن أكون من الجاهلين كما سيأتى من قوله « وَإِلَّا تَضَرِفَ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ » .

(إنه ربى أحسن مثنوى) أى إنه سيدى المالك لرقبتي ، قد أحسن معاملتي  
فى إقامتي عندك وأوصاك يا كرام مثنوى ، فلا أجزيه بالإحسان إساءة وأخونه فى أهله ،  
ثم علل ما صنع بقوله :

(إنه لايفلح الظالمون ) أى إنه تعالى لايفلح الظالمين لأنفسهم والظالمين للناس  
بخيانة وتعدّ على الأعراض لا فى الدنيا ببلوغ الإمامة والرياسة ولا فى الآخرة بالوصول  
إلى رضوان الله تعالى ودخول جنات النعيم .

وفى هذا إيماء إلى الاعتزاز به ، والأمانة لسيده ، والتعريض بخيانة امرأته ،  
واحتقارها بما أضرم نار الغيظ فى صدرها .

( ولقد همت به ) أى ولقد همت بأن تبطش به ، إذ عصى أمرها وخالف مرادها  
وهى سيده وهوعبدها ، وقد استدلت له بدعوته إلى نفسها بعد أن احتالت عليه  
بمرادته عن نفسه ، وكلما أثلجت عليه ازداد عتوا واستكبارا ، معتزا عليها بالديانة  
والأمانة ، والترفع عن الخيانة ، وحفظ شرف سيده وهوسيدها ، ولا علاج لهذا إلا تذليله  
بالانتقام ، وهذا ما شرعت فى تنفيذه أو كادت بأن همت بالتنكيل به .

( وهمّ بها ) لدفع صياها عنه وقهرها بالبعد عما أرادته .

( لولا أن رأى برهان ربه ) أى ولكنه رأى من ربه فى سريرة نفسه ما جعله  
يتمنع من مصاولتها واللجوء إلى الفرار منها .

والخلاصة — إن الفارق بين ههما وهه ، أنها أرادت الانتقام منه شفاء لغيظها  
إذ فشلت فيما تريد ، وأهينت بعتوه واستكباره وإبائه لما أرادت ، وأراد هو الاستعداد  
للدفاع عن نفسه ، وهمّ بها حين رأى أمارة وثوبها عليه ، فكان موقفهما موقف  
المواجهة والاستعداد للمضاربة ، ولكنه رأى من برهان ربه وعصمته ما لم ترمثله إذ  
ألمه أن الفرار من هذا الموقف هو الخير الذى به تتم حكمته فيما أعده له ، فاستبقا باب  
الدار وكان من أمرها ما يأتى بيانه فيما بعد ، هذا خلاصة رأى نقله ابن جرير وأيده  
الفخر الرازى وأبو بكر الباقلانى .

ويرى غيرهم من المفسرين أن المعنى أنها همت بفعل الفاحشة ولم يكن لها معارض ولا مانع ، وهمّ هو بمثل ذلك ، ولولا أن رأى برهان ربه لاقتربها .

وقد فندّه بعض العلماء لوجوه :

(١) إن الهم لا يكون إلا بفعلٍ للهمّ ، والوقاع ليس من أفعال المرأة حتى تهتم به ، وإنما نصيبها منه قبوله ممن يطلبه منها بتمكينه منه .

(٢) إن يوسف لم يطلب منها هذا الفعل حتى يسمى قبولها لطلبه ورضاها بتمكينه همّاً لها ، فالآيات قبل هذه وبعدها تبرئنه من ذلك بل من وسائله ومقدماته .

(٣) إنه لو وقع ذلك لوجب أن يقال ( ولقد هم بها وهمت به ) لأن الهم الأول هو المقدم بالطبع وهو الهم الحقيقي والهم الثانى متوقف عليه .

(٤) إنه قد علم من هذه القصة أن هذه المرأة كانت عازمة على ما طلبته طلباً جازماً ومصرّة عليه ، فلا يصح أن يقال إنها همت به ، إذ الهم مقاربة الفعل المتردد فيه ، بل الأنسب فى معنى الهمّ هو ما فسرناه به أولاً ، وذلك لإرادة تأديبه بالضرب .

وقد رووا هنا أخباراً من الإسرائيليات عن تهتك المرأة وتبذلها مما لا يقع مثله من أوقح الفساق الذين تجردوا من جلايب الحياء فضلاً عن ابتسلي بالمعصية أول مرة من سليمان الفطرة الذين لم تغلبهم ثورة الشهوة الجاحمة على حيائهم الفطرى وحيائهم من نظر ربهم إليهم .

( كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ) أى جرت أفعالنا وأقدارنا كذلك لنصرف عنه دواعى ما أرادت به من السوء وماراودته عليه قبله من الفحشاء - بعصمة منا تحول دون تأثير دواعيها الطبيعية فى نفسه ، حتى لا يخرج من جماعة الحسنين إلى جماعة الظالمين الذين ذمهم وشهد هو فى رده عليها بأنهم لا يقلحون ، وقال : لنصرف عنه السوء والفحشاء ، ولم يقل لنصرفه عن السوء والفحشاء ، لأنه لم يعزم عليهما بل لم يتوجه اليهما فيصرف عنهما .

( إنه من عبادنا المخلصين ) أى إنه من جماعة المخلصين وهم آباؤه الذين أخلصهم ربهم وصفّاهم من الشوائب وقال فيهم « وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ

أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ . إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ . وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ .

( واستبقا الباب ) أى تسابقا إلى الباب ففر يوسف من أمامها هاربا إليه طالبا النجاة منها مرجحا الفرار على الدفاع الذى لاتعرف عاقبته ، وتبعته هى تبغى إرجاءه حتى لايفلت من يدها ، وهى لاتدرى إذا هو خرج إلى أين يذهب ، ولماذا يقول ولامايفعل ؟ لكنها أدركته .

( وقدت قيضه من دبر ) أى جذبته من رذائيه وشدت قيضه فانقذ .

( وألقيا سيدها لدى الباب ) أى وجدا زوجها عندالباب ، وقد كان النساء فى مصر يلقبن الزوج بالسيد ، ولم يقل سيدها لأن استرقاق يوسف غير شرعى ، وهذا كلام ربه العليم بأمره ، لا كلام من استرقه .

( قالت ماجزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم ) أى وحينئذ خرجت مما هى فيه بمكرها وكيدها ، وقالت لزوجها متنتصلة من جرمها وقاذفة يوسف : ماجزاء من أراد بأهلك شيئا يسوءك صغيرا كان أو كبيرا إلا سجن يعاقب به ، أو عذاب مؤلم موجه يؤدبه ويلزمه الطاعة .

قال الرازى : وفى هذا القول ضروب من الحيل .

( ١ ) إيهام زوجها أن يوسف قد اعتدى عليها بما يسوءها ويسوءه .

( ٢ ) إنها لم تصرح بجرمه حتى لايشدد غضبه ويقسو فى عقابه . كأن يبيعه أو يقصيه عن الدار ، وذلك غير ما تريد .

( ٣ ) إنها هددت يوسف وأنذرتة بما يعلم منه أن أمره بيدها ليخضع لها ويطيعها .

( ٤ ) إنها قالت . إلا أن يسجن والمراد منه أن يسجن يوما أو أقل على سبيل التخويف فحسب ، أما الحبس الدائم فكان يقال فيه : ( يجب أن يحمل من المسجونين ) ألا ترى أن فرعون حين هدد موسى قال ( لَئِنْ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ) .

وجملة القول فى هذا — أن يوسف عليه السلام كان قوى الإرادة لا يمكن غيره أن يحتال عليه ويصرفه عن رأيه ويجعله خاضعا له ، ومن ثم لم تستطع امرأة العزيز أن تحوّل إرادته إلى ما تريد بمرادتها ، ولا عجب فى ذلك فهو فى ورائته الفطرية والمكتسبة ومقام النبوة عن آبائه الأكرمين ، وما اختصه به ربه من تربيته والعناية به ، وما شهد له به من العرفان والإحسان والاصطفاء ، وما صرف عنه من دواعى السوء والفحشاء — فى مكان مكين وحرز حصين من أن تتطلع نفسه إلى اجتراح السيئات ، وارتكاب المنكرات ، فكل ماصوروه به من الصور البشعة الدالة على الميل إلى الفجور إنما هو من فعل زنادقة اليهود ، ليلبسوا على المسلمين دينهم ، ويشوهوا به تفسير كلام ربهم ولا يفرّثك إسناد تلك الروايات إلى بعض الصحابة والتابعين فهى موضوعة عليهم ، ولا ينبغى أن يعتدّ بها ، لأن نصوص الدين تنذّرها ، إلى أنه من علم الغيب فى قصة لم يعلم الله رسوله غير ما قصه عليه فى هذه السورة ، وكفى بهذا دلالة على وضعها .

### تحقيق زوجها وحكم قريبها وظهور براءة يوسف

قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِّنْ كَيْدِ كُنَّ إِن كَيْدَ كُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩) .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر فى الآيات السابقة مخادعتها ليوسف عن نفسه وتغليقها الأبواب وهر به منها إلى الباب وجذبها لقميصه ورؤية سيدها لذلك الحادث واتهامها ليوسف

بإرادة السوء منها - ذكر هنا تبرئة يوسف لنفسه وحكم قريبها في القضية بعد بحث وتشاور بين زوجها وأهلها ، ثم علم الزوج ببراءة يوسف وثبوت خطيئتها .

## الإيضاح

( قال هي راودتني عن نفسي ) أى هي طلبتني فامتنعتُ وقررت كما ترى ، وقد قال هذه المقالة وهتك سترها خوفاً على النفس والعرض ، ولاشك أن هذه حال تحتاج إلى بحث وتشاور وأخذ وردٍّ لم يبينه لنا الكتاب الكريم وإن كان لابد أن يحصل حتماً كما هو مقتضى العادة والعقل ، لأن المقصد من القصة بيان نزاهة يوسف وفضائله لتكون عبرة لغيره .

وكانت الأمارات دالة على صدق يوسف لوجه :

(١) إن يوسف كان مولى لها ، وفي مجرى العادة أن المولى لا يجزؤ أن يتسلط على سيده ويتشدد إلى مثل هذا .

(٢) إنهم رأوا يوسف يعدو عدواً شديداً ليخرج ، ومن يطلب امرأة لا يخرج على هذا النحو .

(٣) إنهم رأوا الزينة قد بدت على وجه المرأة ، ولم يكن لها من أثر على وجه يوسف .

(٤) إنهم لم يشاهدوا من أخلاق يوسف في تلك الحقب الطويلة ما يؤيد مثل هذه التهمة أو يقوى الظن عليه بأنه هو الطالب لالهارب .

وقد أظهر الله لبرائه ما يقوى تلك الدلائل الكثيرة التي تظاهرت على أن بدء الفتنة كانت منها لامنه وأنها هي المذنبه لاهو وذلك ما أشار إليه بقوله :

( وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين .  
وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين ) أى وحكم ابن عم لها مستدلاً بما ذكر ، وكان عاقلاً حصيف الرأي فقال : قد سمعنا جلبة وضوضاء ورأينا

شق القميص إلا أنا لا ندرى أيكمما كان قدام صاحبه ، فإن كان شق القميص من قدام فصدقت في دعواها أنه أراد بها سوءا ، إذ الذى يقبله العقل أنه لما وثب عليها أخذت بتلابيبه فجاذبها فانقدّ قميصه وهما يتنازعان ويتصارعان ، وهو من الكاذبين في دعواه أنها راودته فامتنع وفرّ هارباً فتبعته وجذبتة تريد إرجاعه ، وإن كان قميصه قدّ من الخلف فكذبت في دعواها أنه هجم عليها يريد ضربها ، وهو من الصادقين في قوله : أنه فرّ هارباً منها .

روى أن هذا الشاهد كان صبيا في المهد وأيدوه بما نقل عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « تكلم أربعة وهم صغار : ابن ماشطة فرعون ، وشاهد يوسف ، وصاحب جرّيج ، وعيسى ابن مريم » وما روى عن أبي هريرة قال « عيسى بن مريم وصاحب يوسف وصاحب جريج تكلموا في المهد » وهذا موقف لا يصلح الاحتجاج به ، والأول قد ضعفه رجال الحديث ، إلا أنه لو نطق الطفل بهذا لكان قوله كافيا في تنفيذ زعمها دون حاجة إلى الاستدلال بتمزيق القميص ، لأنه من الدلائل الظنية ، وكلامه في المهد من الدلائل اليقينية ، وأيضا لو كان كذلك لما كان هناك داع إلى قوله : من أهلها الذى ينفي التحامل عليها ويمنع إرادة ضربها ، وأيضا فإن لفظ ( الشاهد ) لا يقع عرفا إلا على من تقدمت معرفته لما يشهد وإحاطته به .

( فلما رأى قميصه قدّ من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم ) أى فلما نظر إلى القميص ورأى الشق من الخلف أيقن بصدق قوله واعتقد كذبها ، وقال إن هذا محاولة للتوصل من جرّمها باتهامها له بضروب الكيد المعروفة عن النساء ، فهو سنة عامة فيهن ، فهن يجتهدن في التبرى من خطاياهن ما وجدن إلى ذلك سبيلا ، وكيد النساء عظيم لا قبل للرجال به ، ولا يفطنون لحيلهن حتى يدفعوها قدر المستطاع ، ولا شك أن هذه شهادة من قريب لها لا يتهم بالتحامل عليها ولا بظلمها وتجريحها برميها بما هي منه برّاءة .

( يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين ) أى يا يوسف

أعرض عن ذكر هذا السكيد الذي حصل ولا تتحدث به ، كي لا ينتشر أمره بين الناس ولا تحف من تهديدها وكيدها لك ، وأنت أيتها المرأة توبى إلى ربك ، واستغفرى لذنبك ، إنك كنت من زمرة المجرمين الذين يتعمدون ارتكاب الخطايا ويحترحون السيئات وهم مصرئون عليها .

### حديث النسوة في المدينة ومكر امرأة العزيز بهن

وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَاً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ، فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ، وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا أُمِّرُهُ لَيَسْجُنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤) ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنَهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (٣٥)

### تفسير المفردات

فتاها : عبدها ورقيقها ، والشغاف : الغلاف المحيط بالقلب ويقال شغفت فلانا إذا أصبت شغاف قلبه ، كما يقال : كبדתه إذا أصبت كبده ، والضلal : الحيدة عن طريق



الرشد وسنن العقل ، بمكرهن : أى بقولهن ، وسى ذلك مكرًا لأنهن كن يردن إغضاها كى تعرّض عليهن يوسف لتبدى عذرها فيقرن بمشاهدته ، وأعدت : أعدت وهيات ، والمتكأ : ما يُجلس عليه من كراسى وأرائك ، وأكبرنه : أعظمته ودهشن من جماله الرائع ، وقطعن أيديهن : أى جرحنها ، حاش لله أى تنزيها لله أن يكون هذا الخلق العجيب من جنس البشر ، واستعصم : استمسك بعروة عصمته التى ورثها عن نشوا عليها ، الصاغرین : أى الأذلة المقهورين ، وأصبُ إليهن : أمل إلى موافقتهن على أهوائهن ، والجاهلين : أى السفهاء الذين يرتكبون القبائح ، فاستجاب له : أى أجاب دعاءه ، وبدا : ظهر ، والآيات هى الشواهد الدالة على براءته عليه السلام ، والحين : وقت من الزمن غير محدود .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه تحقيق زوجها فى الحادث وحكم أحد أقاربها بما رأى ، وقد استبان منه براءة يوسف ، ذكر هنا أن الأمر قد استفاض فى بيوت نساء الوزراء والكبراء فأحببن أن يكرن بها ، لترين هذا الشاب الذى فتنها جماله ، وأذله عفافه وكاله ، حتى راودته عن نفسه وهو فتاه ، ودعته إلى نفسها فردها وأبأها خشية لله وحفظاً لأمانة السيد المحسن إليه أن يخونه فى أعز شىء لديه - عله بعد هذا يصبو إليهن ويمجذه جمالهن ويكون له فيهن رأى غير مارآه فيها ، فإنه قد ألف جمالها قبل أن يبلغ الأشد ، وكان ينظر إليها نظرة العبد إلى سيدته ، أو الولد إلى والدته .

### الايضاح

( وقال نسوة فى المدينة ) لم يشر الكتاب الكريم إلى عدد من ولا إلى صفاتهن ، لأن العبرة ليست فى حاجة إلى ذلك ، والذى يقتضيه العرف ومجرى العادة أنه عمل

جماعة قليلة من بيوتات كبار الدولة يعهد منهن في العرف أن يآثرن ويتقنن على الاشتراك في مثل هذا المسكر، إذ نساء البيوت الدنيا أو الوسطى لاتتجه أنظارهن إلى الإنكار على امرأة العزيز كبير وزراء الدولة، ولا إلى مشاركتها في سلب عشيقها ولا إلى التمتع بجالسه الساحر، وحادث مثل هذا جدير بأن ينتقل من بيت إلى بيت بوساطة الخدم، ويكون الشغل الشاغل للنساء في مجالسهن الخاصة وسمرن في البيوت، وخلاصته :

( امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ) وهذا كلام يقال للإنكار والتعجب من حصوله لوجوه عدة :

- (١) إنها امرأة العزيز الأكبر في الدولة، ولها المنزلة السامية بين نساء العظماء .
  - (٢) إن الذي تراوده عن نفسه هو فتاها ورفيقها .
  - (٣) إنها قد بلغ بها الأمر أن جادت بعفتها فكانت هي المراودة والطالبة لا المراودة المطلوبة .
  - (٤) إنها وقد شاع ذكرها في المدينة لم ينثن عزمها عما تريد، بل لاتزال مُجِدَّة في نيل مرغوبها، والحصول على مطلوبها، كما يفيد ذلك قولهن ( تراود ) وهو فعل يدل على الاستمرار في الطلب .
- ثم أكدوا هذا الإنكار بقولهم :
- ( قد شغفها حبا ) أى قد شق حبه شِغاف قلبها أى غلافه المحيط به وغاص في سويدائه، فلك عليها أمرها، فلا تبالي بما يكون من عاقبة تهتكها، ولا بما يصير إليه حالها .

ثم زادوا ذلك تأكيداً بقولهم :

( إنا لنعلم أنها غائصة في مهاوى الضلالة البينة البعيدة عن طريق الهدى والرشاد، ولم يكن قولهن هذا إنكاراً للمفكر، ولا كرها للرذيلة، ولا نصراً للفضيلة، بل قلته مكرراً وحيلة، ليصل الحديث إليها، فيحملها ذلك

على دعوتهن ، والرؤية بأبصارهن ما يكون فيه معذرة لها فيما فعلت . وذلك منهن مكر لارأى ، وقد وصلن إلى مأردن كما قال تعالى :

( فلما سمعت بمكرهن ) أى فلما سمعت مقاتلتهن التى يردن بها إغضاها حتى تريهن يوسف إبداء لمعذرتها فينلن مايبغين من رؤيته ، وقد كان من المتوقع أن تسمع ذلك ، لما اعتيد بين الخدم من التواصل والتزاور ، وهن ماقلنه إلا لتسمعه ، فإن لم يتم لهن مأردن احتلن فى إيصاله ، وقد كان مأردن كما قال :

( أرسلت إليهن وأعدت لهن متكاً وآتت كل واحدة منهن سكيناً ) أى مكرت بهن كما مكرن بها ، ودعتهن إلى الطعام فى دارها ، وهيات لهن مايتكنن عليه من كراسى وأرائك كما هو المعروف فى بيوت العظماء ، وكان ذلك فى حجرة المائدة ، وأعطت كل واحدة منهن سكيناً ، لتقطع بها ماتاً كل من لحم وفاكهة .

( وقالت اخرج عليهن ) أى وأمرته بالخروج عليهن ، وفى هذا إيماء إلى أنه كان فى حجرة فى داخل حجرة المائدة التى كن فيها محجوباً عنهن ، وقد تعمدت إتماماً للحيلة والمكر بهن أن يفجأهن وهن مشغولات بما يقطعنه ويأكلنه علما منها بما يكون لهذه المفاجأة من الدهشة ، وقد تم لها ماأرادت كما يشير إلى ذلك قوله :

( فلما رأيته أكبرنه وقطعن أيديهن ) أى فخرج عليهن فلما رأيته أعظمنه ودّهشن لذلك الجمال البارع وذهلن فقطعن أيديهن بدلا من تقطيع ماياً كلن ذهولا عما يعملن أى فجرحنها بما فى أيديهن من السكاكين ، لفرط دهشتن وخروج حركات الجوارح عن منهاج الاختيار ، حتى لم يشعرن بما عملن ، ولا ألن لما نالهن من أذى ، واستعمال القطع بمعنى الجرح كثير فى كلامهم فيقولون كنت أقطع اللحم فقطعت يدي ، يريدون فأخطأتها فجرحت يدي حتى كدت أقطعها .

( وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم ) أى وقلن هذا على نهج التعجب والتنزيه لله تعالى أن يكون هذا الشخص الذى لم يعد مثاله فى جماله ولا فى عفته من النوع الإنسانى ، إن هو إلا ملك تمثل فى تلك الصورة البديعة التى تخلب الأبواب وتدهش الأبصار .

روى عن زيد بن أسلم من مفسرى السلف : أعطتهن أترُنجاً ( ثمر من نوع الليمون الحامض كبير مستطيل يؤكل بعد إزالة قشرته ) وعسلا فكن يحززن بالسكين ويأكلنه بالعسل ، فلما قيل له : اخرج عليهن خرج ، فلما رأيته أعظمته وتهمن به حتى جعلن يحززن أيديهن بالسكين وفيها الترنج ولا يعقلن ولا يحسنن إلا أنهن يحززن الأترنج ، قد ذهبت عقولهن مما رأين وقلن حاش لله ما هذا بشرا ، أى ما هكذا يكون البشر ، ما هذا إلا ملك كريم .

( قالت فذا لکن الذى لمتننى فيه ) أى حينئذ قالت لهن : إذا كان الأمر مارأتين بأعينكن ، ومأ كبرتى فى أنفسكن ، وما فعاتن بأيديكن ، وما قلتن بالسنتكن ، فذا لکن هو الذى لمتننى فيه ، وأسرفتن فى لومى وتعنيفى ، وقاتن فى قاتن ، فما يوسف بالعبد العبرانى ، أو المملوك الكنعانى ، ولا بالخدام الصعلوك الذى شغف مولاته حبا وغراما ، وراودته عن نفسه ضلالا منها وهياما ، بل هو ملك تجلّى فى صورة إنسان ، فماذا أنتن قائلات فى أمرى ، وهو المالك لسمى وبصرى ، وإنى لأراه بشرا سويا ، إنسيا لاجنيا ، وجسدا لاملسكا روحانيا ، فأتصبّاه بكل ما أملاك من كلام عذب ، فلا بصبو إلىّ ، ولا يظّهر نحوى عطفًا ، ولا يرفع إلىّ طرفا

( واقدر راودته عن نفسه فاستعصم ) أى ولقد راودته عن نفسه فامتنع عما أرادته منه ، واستمسك بعروة العصمة التى ورثها عن نشتوا عليها ، ولا عجب فإنّ نظره إلى الله لم يدع فى قلبه البشرى مكانا خاليا لنظرات هذه العاشقة التى شغفها حبا .

( ولئن لم يفعل ما أمره ليسجننّ وليكونا من الصاغرين ) أى ولئن لم يفعل ما أمره به مستقبلا كما لم يفعله ماضيا : ليسجنن وليكونن من الأذلة المقهورين ، فإن زوجى لا يخالف لى رغبة ، ولا يعصينى فى أمر ؛ وسيعاقبه بما أريد ، ويلقيه فى غيايات السجون . ويجعله كغيره من العبيد بعد إكرام مثواه وجعله كولد .

وفى ذلك إيحاء إلى أنها ستشدد العقوبة عليه أكثر مما توعدت به أولا ، فهناك أنذرته بسجن قد يكون على أخف صورة وأقلها ، وعذاب بأهون أنواعه وألطفها كحبس

فى حجرة الدار ، أو لطمه على خديه تزيل منها الاحمرار ، وهنا أنذرتة بسجن مؤكد وذل وصغار تأباه الأنفس الكريمة كنفس يوسف عليه السلام فأشق الأعمال أهون على كرام الناس من الهوان والصغار .

وفى هذا التهديد من ثقتها بسلطانها على زوجها مع علمه بأمرها واستعظامه لكيدها ، ما كان من حقه أن يجعل يوسف يخاف من تنفيذ إرادتها ويثبت لديه عدم غيرته عليها كما هو الحال لدى كثير من العطاء المترفين العاجزين عن إحسان أزواجهن والمحرومين من نعمة الأولاد منهم .

وربما تكون مبالغتها فى تهديده بمحضر من هؤلاء النسوة لما فى قلبها منه من غُل وجوى بظهور كذبها وصدقه ، وتصميمه على عصيان أمرها ، ولتُظهر ليوسف أنها ليست فى أمرها على خيفة من أحد فتضيق عليه الحيل ، ولينصحنه فى موافقتها ويرشدنه إلى الخلاص من عذابها .

يا لله ! إن هذا الموقف يهد الجبال الراسيات ، وتدير لاقبل لأشد العزائم على احتماله ، فامرأة ما كرهت هتكت سترها ، وكاشفت نسوة بلدها بما تسر وتعلن من أمرها ، ونسوة تواطن معها على الكيد له كما كادت له من قبل بمرادته عن نفسه ، ولا سبيل إلى دفع هذه الضراء ، وإبعاد تلك اللاأواء ، إلا بمعونة من ربه ، وحفظه من نزغات الشيطان وكلاءة الرحمن ، ومن ثم جرى على لسانه ما أكنه جنانه :

( قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه ) أى قال ربى أنت العليم بالسر والنجوى ، والقدير على كشف تلك البلوى : إن السجن الذى هُددت به والمكث فى بيئة المجرمين على شطف العيش ورقة الحال - أحب إلى نفسى مما يدعوا إليه أولئك النسوة من الاستمتاع بهن فى ترف القصور ، والاشتغال بحبهن عن حبك وبقربهن عن قربك .

وفى قوله مما يدعوننى إليه إيماء إلى أنهم خوفه مخالفتها ، وزين له مطاوعتها فقلن له : أطع مولاتك وأنلها ما تهوى ، لتسكنى نهرها ، وتأمين عقوبتها .

(وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن) أى وإن لم تبعد عني شرك كيدهن وتنبئتني على ما أنا عليه من العصمة ، أمل إلى موافقتهم على أهوائهم وأقع في شباك صيدهن وأرتع في حاة غوايتهم ، وقد لجأ يوسف إلى اللطاف ربه ، وسلك سبيل المرسلين من قبله ، في فزعهم إلى مولاهم لينيلهم الخيرات ، ويبعد عنهم الشرور والموبقات ، وإظهارهم أن لا طاقة لهم إلا بمعونته سبحانه مبالغة في استدعاء لطفه وعظيم كرمه ومنه .

(وأكن من الجاهلين) أى من السفهاء الذين تستخفهم الأهواء والشهوات ، فيجنحون إلى ارتكاب الموبقات واجتراح السيئات ، فمن يعيش بين هؤلاء النسوة المماكرات المترفات لامتهرب له من الجهل إلا أن تعصمه بما هو فوق الأسباب والسنن العادية .

وفي هذا إيماء إلى أنه ماصبا إليهن ، ولا أحب أن يعيش معهن ، بل سأل ربه أن يديم له ماعوده من كشف سوء عنه في قوله « كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ » .

(فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن) أى فأجاب له ربه دعاءه الذى تضمنه قوله : وإلا تصرف عني كيدهن الخ فصرف عنه كيدهن وعصمه من الجهل والسفه باتباع أهوائهم .

(إنه هو السميع العليم) أى إنه هو السميع لدعاء من تضرع إليه وأخلص الدعاء له ، العليم بصدق إيمانهم وبما يصلح أحوالهم .

وفي هذا إرشاد إلى أن ربه حرسه بعنايته في جميع أطواره وشئونته ، ورباه أكل تربية وماخلآه ونفسه في أهون أموره .

(ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين) أى ثم ظهر للعزير وامراته ومن يهمة أمرهما كالشاهد الذى شهد عليها من أهلها - من رأى ما لم يكن

ظاهراً لهم من قبل - بعد أن رأوا من الآيات ما اختبروه بأنفسهم وشهدوه بأعينهم ، مما يدل على أن يوسف لم يكن إنساناً كالذين عرفوا في أخلاقه وعفته واحتقاره للشهوات واللذات التي يتمتع بها سكان القصور ، وفي إيمانه بأن ربه لن يتركه بل يكلؤه بعين عنايته ، ويحرسه بوافر رعايته ، وقد استبان لهم ذلك من وجوه :

(١) إن افتنان سيدته في مراودته وجذبها خلسات نظره لم تؤثر في ميل قلبه إليها ، بل ظل مُعْرِضاً عنها متجاهلاً لها حتى إذا ما صارحته بما تريد استعاذ بربه ورب أبائه ، وعيَّرها بالخيانة لزوجها .

(٢) إنها لما غضبت وهمت بالبطش به هم بمقاومتها والبطش بها ، ولم يمنعها إلا ما رأى في دخيلة نفسه من برهان ربه الذي يدل على أن ربه صارف عنه السوء والفحشاء .

(٣) إنها حين اتهمته بالتمعدى عليها شهد شاهد من أهلها أنها كاذبة في اتهامها إياه وهو صادق فيما ادعاه من مراودتها إياه عن نفسه بدلالة القميص على ذلك .

كل هذا أثبت لهم أن بقاءه في هذه الدار بين ربتها وصديقاتها مثار فتنة لا تدرك غايتها ، وأن الحكمة هو تنفيذ رأيها الأول بسجنه لإخفاء ذكره وكف أسنة الناس عنها في أمره ، وأقسموا بسجنه حتى حين دون نقيض بزمن معين ليروا ما إذا يكون فيه من تأثير السجن وحديث الناس عنه .

وفي تنفيذ هذا العزم دلالة على ما كان لهذه المرأة الماكرة من سلطان على زوجها تقوده كيف شاءت ، حتى فقد الغيرة عليها ، فهو يجرى وراء هواها ، ويستجلب رضاها ، حتى أنساه ذلك ما رأى من الآيات وعمل برأيها في سجنه لإلحاق الهوان والصغار به حين أيسر من طاعته وطمعت في أن يذلل السجين لأمرها ويقف به عند مشيئتها .

وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ  
الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ، نَبِّئْنَا  
بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا  
نَبِّأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ، ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ، إِنِّي  
تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ  
مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ، مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ  
شَيْءٍ ، ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ  
لَا يَشْكُرُونَ (٣٨)

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه مكر النسوة بامرأة العزيز لقرينهن يوسف ، ثم مكر امرأة  
العزيز بهن حتى قطعن أيديهن وقلن في يوسف ما قلن من وصف جماله ، ثم إظهار  
امرأة العزيز المذرة لنفسها فيما فعلت ، وعزمها على سجنه إن لم يكن مطوعا لها ،  
ثم حماية الله له من كيدها بعد دعائه إياه ، ثم تدبير مؤامرة بين العزيز وامراته وأهلها  
على إدخاله السجن مع كل مارأوا من الآيات حتى ينسى الناس هذا الحديث وتسكن  
تلك الثائرة في المدينة .

ذكر هنا تنفيذهم لما عزموا عليه من إدخالهم إياه السجن ، وما كان من لطف الله به إذ  
أنه من علم تعبير الرؤيا ما يستطيع به أن يعبر لكل عالم عما يراه ، ويخبر كل أحد  
عما يسأله عنه مما لم يكن حاضرا لديه وماسيا إلى له من طعام وشراب ونحو ذلك ،  
ثم ذكر قول يوسف إن هذا كله نعمة من نعم الإيمان بالله عليه وعلى آبائه إبراهيم  
وإسحق ويعقوب .



## الايضاح

( ودخل معه السجن فتيان ) أى فسجنوه ودخل معه فتيان مملوكان من غلمان ملك مصر أحدهما خبازه والآخر ساقيه - لخيانة نسبت إليهما كانت ستودى بحياته ، وبعد أن استقر بيوسف المقام فى السجن - سأله من فيه عن عمله فقال إني أعبر الرؤى ، فقال أحد الفتيين لصاحبه تعال فلنجرّبه وكان من شأنهما معه ما قصه الله علينا بقوله ( قال أحدهما إني أراني أعصر خراً ) أى قال صاحب شرابه : إني رأيت فى المنام أنى أعصر خرا أى عنبا ليكون خرا ، إذ الخمر لا يُعَصَّر ، وقيل إن عرب غسان وعمّان يسمون العنب خرا . روى أنه قال رأيت حُبْلَةً من كرم حسنة لها ثلاثة أغصان فيها عناقيد فكنت أعصرها وأسقى الملك .

( وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه ) أى وقال الآخر وهو الخباز ، وقد روى أنه قال : رأيت أنى أخرج من مطبخ الملك وعلى رأسى ثلاث سلال فيها خبز والطير تأكل من أعلاه .

( نبئنا بتأويله ) أى قال كل واحد منهما : نبئنى بتأويل ما رأيت أى بتفسيره الذى يثول إليه فى الخارج إذا كان حقلا أضغاث أحلام .

ثم بينا له ثقتهما به فقالا :

( إنا نراك من المحسنين ) أى الذين يحسنون تأويل الرؤيا ، وماقالا هذا إلا بعد أن رأيا من سعة علمه وحسن سيرته مع أهل السجن ما جعله كعبة قصادم وقبله استفقائهم .

وقد يكون المعنى : إنا نراك من الذين يحسنون بمقتضى غريزتهم ، ويريدون الخير للناس وإن لم يكن لهم فيه منفعة خاصة لهم .

وقد وجد يوسف عليه السلام من ثقة السائلين بعلمه وفضله واهتمامهما بما يسمعان من تأويله لرؤياهما ما جعله يحدّثهما بما هو المهم عنده وهو دعوتهما وجميع من فى السجن

إلى توحيد الله ، ولكنه جعل في صدر كلامه ما يطمئنهم على الثقة بصدقه ، وذلك بإظهار ما من الله به عليه من تعليمه ما شاء من أمور الغيب ، وأقرب ذلك إلى اقتناعهم ما يختص بمعيشتهم ، ومن ثم جعله بدء الحديث معهم كما حكى سبحانه عنه .

( قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ) أى قال لهما لا يأتيكما طعام إلا أخبرتكما به وهو عند أهله وبما يريدون من إرساله وما ينتهى إليه بعد وصوله إليكما روى أن رجال الدولة كانوا يرسلون إلى المجرمين طعاما مسموما يقتلونهم به ، وأن يوسف أراد هذا من كلامه .

وفى ذلك إيماء إلى أنه أوتى علم الغيب ، وهذا يجرى مجرى قول عيسى عليه السلام : « وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ » .

ومن هذا يعلم أن وحى الرسالة جاءه وهو فى السجن ، وبذلك تحقق قوله : « رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ » كما أن وحى الإلهام جاءه حين إلقاءه فى غيابة الحب كما تقدم ذكره ، وكأنه سبحانه جعل فى كل محنة منحة ، وفى كل مآظاهرة أنه بلاء نعمة .

( ذلكما مما علمنى ربى ) أى ذلكما الذى أنبأتكما به بعض ما علمنى ربى بوحي منه إلى لا يكفانه ولا عِرافة ولا ما يشبه ذلك من تعليم بشرى يلتبس به الحق بالباطل ويشته فيه الصواب بالخطأ .

( إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله ) القوم هنا الكنعانيون وغيرهم من سكان أرض الميعاد ، والمصريون الذين هو بينهم فقد كانوا يعبدون آلهة منها الشمس ويسمونها ( رع ) ومنها مجلهم ( أبيس ) ومنها فراغهم ، وكان التوحيد خاصا بحكماهم وعلمائهم ، ومعنى تركها أنه ترك دخولها واتباع أهلها من عبدة الأوثان على كثرة أهلها ، وفى ذلك لفت لأنظارهما لأن يتركا تلك الملة التى هم عليها .

والعنى — إني برئت من ملة من لا يصدق بالله ولا يقر بوحدانيته وأنه خالق السموات والأرض وما بينهما .

(وم بالآخرة هم كافرون) أى وهم يكفرون بالآخرة والحساب والجزاء على الوجه الذى دعا إليه الأنبياء ، إذ أنهم كانوا يصورون حياة الآخرة على صور مبتدعة ، منها أن فراغتهم يعودون إلى الحياة الآخرة بأجسادهم المحنطة ويرجع إليهم الحكم والسلطان كما كانوا فى الدنيا ، ومن ثم كانوا يضعون معهم فى مقابرهم جواهرهم وحليهم ، وبينون الأهرام لحفظ جثثهم وماءهم ، ولهم معتقدات أخرى فى تلك الحياة لاتشاكل ما جاء عنها على السنة الرسل عليهم السلام .

(واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحق ويعقوب) أى واتبعت ملة آبائى الذين دَعَوْا إلى التوحيد الخالص وهم إبراهيم وإسحق ويعقوب ، وفى ذكر ذلك ترغيب لصاحبيه فى الإيمان والتوحيد وتنفير لها عما هما فيه من الشرك والضلال .

ثم بين أساس الملة التى ورثها عن أولئك الآباء الكرام فكانت يقينا له بقوله :  
(ما كان لنا أن نشرك بالله من شئ) أى لا ينبغى لنا معشر الأنبياء أن نشرك بالله شيئا فنتخذة رباً مدبراً معه ولا إلهاً معبوداً من الملائكة أو البشر كالفراعة ، فضلاً عما دونهما من البقر كالعجل أبيس أو من الشمس والقمر ، أو ما يتخذ من التماثيل والصور لهذه الآلهة .

(ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس) أى عدم الإشراك من فضل الله علينا ، إذ هداانا إلى معرفته وتوحيده فى ربوبيته وألوهيته ، بوحيه وآياته فى الأنفس والآفاق ، وعلى الناس بإرسالنا إليهم ، ننشر فيهم الدعوة ، ونقيم عليهم الحجة ، فنهديهم سبيل الرشاد ، ونبين لهم محجة الصواب ، ونبعدهم عن طرق الغواية والضلال .

(ولكن أكثر الناس لا يشكرون) نعم الله عليهم ، فيشركون به أرباباً وآلهة من خلقه ، يذلون أنفسهم بعبادتهم ، وهم مخلوقون لله مثلهم أو أدنى منهم .

يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩)  
 مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ  
 بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ، إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ ، أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ، ذَلِكَ  
 الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤٠)

### المعنى الجملى

بعد أن أبطل يوسف عليه السلام ما هما عليه من الشرك فيما سلف ، وذكر أنه قد  
 اتبع ملة آبائه إبراهيم وإسحق ويعقوب ، وبين أن هذا فضل من الله ومنته عليهم  
 وعلى الناس ، وكثير من الناس لا يشكرون الخالق لهذه النعم فيعبدوه وحده دون أن  
 يشركوا به أحدا - دعاها هنا إلى التوحيد الخالص وأيده بالبرهان الذى لا يجد العقل  
 محيصا من التسليم به والإقرار بصحته فقال :

### الإيضاح

(يا صاحبى السجن) أى يا صاحبى فى السجن ، وناداهما بعنوان الصحبة فى هذه  
 الدار التى هى دار الأشجان وموضع الهموم والأحزان ، وفيها تصفو المودة وتخلص النصيحة  
 ليضعفيا إلى مقاله ، ويقبلا على استماع ما يُلْقَى إليهما به ، فالأذان حينئذ مرهفة ،  
 والقلوب قد انصرفت عن الدنيا ولذاتها ، وتفرغت لعالم آخر غير ما يشغل الناس من  
 زُبرج هذه الحياة وزخرفها .

(أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار) هذا استفهام لتقرير ما يذكر بعده  
 وتوكيده ، والمراد بالتفرق التفرق فى الذوات والصفات المعنوية التى ينعتونهم بها ، والصفات  
 الحسية التى يصورها لهم بها الكهنة والرؤساء من رسوم منقوشة ، وتماثيل منصوبة ،  
 فى المعابد والهياكل ، والقهار : الغالب على أمره الذى لا يغلبه أحد .

والمعنى — أرباب كثيرون هذا شأنهم فى التفرق والانقسام ، وما يقتضيه ذلك من التنازع والاختلاف فى الأعمال والتدبير الذى يفسد النظام — خير لكما ولنغير كما فيما تطلبون من كشف الضر وجلب النفع وكل ما تحتاجون فيه إلى المعونة من عالم الغيب، أم الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لا ينازع ولا يعارض فى تصرفه وتدييره ، وله القدرة التامة والإرادة العامة ، وهو المسخر لجميع القوى والنواميس الظاهرة التى تقوم بها نظم العوالم السماوية والأرضية من نور وهواء وماء ، والغائبة عنا كالملائكة والشياطين مما كان الجهل بحقيقتها هو سبب عبادتها والقول بربوبيتها ؟ ولا شك أن الجواب عن هذا مما لا يختلف فيه عاقل ، فلا خير فى تفرق المعبودات التى لا تستطيع ضُرّاً فى الأرض والسموات .

ثم بين لهما أن ما يعبدونه ويسمونه آلهة إنما هى جعلٌ منهم ، وتسمية من تلقاء أنفسهم ، تلقاها خلف عن سلف ، ليس لها مستند من العقل ولا الوحي السماوى فقال : ( ماتعبدون من دونه إلا أسماء سميتوها أنتم وآبائكم ما أنزل الله بها من سلطان ) أى ماتعبدون من دون الواحد القهار إلا أسماء لمسميات وضعتوها أنتم وآبائكم من قباسكم وتخلعتموها صفات الربوبية وأعمالها ، وماهى بأرباب تخلق وترزق ، وتضر وتنفع ، ما أنزل الله حجة وبرهاناً على أحد من رسله بتسميتها أرباباً ، حتى يقال إنكم تتبعونها تعبداله وحده وطاعة لرسله .

والخلاصة — إنها تسمية لا دليل عليها من نقل سماوى فتكون أصلاً من أصول الإيمان ، ولا دليل عليها من عقل فتكون من نتائج الحجة والبرهان .

( إن الحكم إلا لله ) أى ما الحكم الحق فى الربوبية والعبادة إلا لله وحده يوحىه لمن اصطفاه من رسله ولا يمكن بشراً أن يحكم فيه بهواه ورأيه ، ولا بقله واستدلاله ، ولا باجتهاده واستحسانه ، وهذه قاعدة اتفقت عليها كل الأديان ، دون اختلاف فى الأمكنة والأزمان .

ثم بين ما حكم به الله فقال :

( أمر ألا تعبدوا إلا إياه ) أى أمر ألا تعبدوا غيره ولا تدعوا سواه ، فله وحده

اركعوا واسجدوا ، وإليه وحده توجهوا خنفاء غير مشركين به شيئا من ملك من الملائكة ولا ملك من الملوك الحاكّين ، ولا شمس ولا قمر ولا نجم ولا شجر ، ولا حيوان كالعجل أيس لدى المصريين .

فالمؤمن الصادق الإيمان لا يذلل ولا يحزى لأحد غير الله مما خلق ، بدعاء ولا استغاثة ولا طلب فرج من ضيق ، لإيمانه بأنه هو الرب المدبر لكل شيء ، وأن كل ما سواه فهو خاضع لسلطانه ، ولا يملك لنفسه ولا غيره غير ما أعطاه من القوى ، فإليه وحده الملجأ في كل ما يعجز عنه الإنسان أو يجهله من الأسباب ، وإليه المصير في الجزاء على الأعمال يوم يقوم الحساب .

( ذلك الدين القيم ) أى إن تخصيصه بالعبادة هو الدين الحق الذى لا عوج فيه ، والذى دعا إليه جميع الرسل ، ودلت عليه براهين العقل والنقل .

( ولكن أكثر الناس لا يعلمون ) أن ذلك هو الدين الحق الذى لا عوجاج فيه ، لا ما ساروا عليه تبعا لأبائهم الوثنيين من الاعتقاد بأرباب متفرقين .

وقد حقيقت هذه الحقيقة على كثير ممن يدعون اتباع القرآن ، فتراهم يتوجهون إلى غير الله من الأولياء والصلحاء إذا مسهم الضر ، ويدعونهم خاشعين متذللين ، ويسمونهم شفعاء ووسائل عند الله ، وما هذا إلا مثل فعل من قبلهم من المشركين ، فليس لهم من صفات الربوبية أدنى حظ ، ولا من صفات الألوهية أقل نصيب .

وبعد أن بين لها الحق في مسألة التوحيد وعبادة الله وحده شرع في إنبائها عما استنبأه عنه فقال :

يَا صَاحِبِ السَّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمْ فَيَسْقِ رَبَّهُ خَيْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ  
فَيُضْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ ، قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١)

وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَاهُ الشَّيْطَانُ  
ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (٤٢)

تأويل يوسف عليه السلام رؤيا صاحبي السجن ووصيته للناجي منهما

### الايضاح

(يا صاحبي السجن أما أحذركا) وهو الساقى الذى رأى أنه يعصّر خرا، ولم يعينه  
ثقة بدلالة الحال، ورعاية لحسن الصحة.

(فيسقى ربه خرا) أى فيسقى سيده ومالك رقبته. وقد روى أن يوسف قال له  
فى تعبير رؤياه : ما أحسن ما رأيت ، أما الكرمة فهى الملك وحسنها حسن حالها  
عنده ، وأما الأغصان الثلاثة فتلاثة أيام تمضى فى السجن ثم تخرج وتعود إلى عملك .  
(وأما الآخر) وهو الذى رأى أنه يحمل خبزا تأكل الطير منه .

(فيصلب فتأكل الطير من رأسه) أى الطير الكواسر كالحدأة والرحمة ونحوهما  
روى أنه عليه السلام قال له : ما رأيت من السلال الثلاث ، فتلاثة أيام تمر ثم تُخرج  
فتُصلب .

(قضى الأمر الذى فيه تستفتيان) الاستفتاء فى اللغة : السؤال عن المشكل المجهول  
والفتوى جوابه : أى إن الأمر الذى يهمكما ويشكل عليكما وتستفتيانى فيه قد بُتَّ فيه  
وانتهى حكمه .

وهذه الفتوى من يوسف عليه السلام زائدة على تعبير رؤياها داخله فى باب  
المكاشفة والإنباء عن الغيب ، قالها لها ليتمقا بقوله ، ويعلم أنها إنما قالها بوحي من ربه ،  
وأن الملك قد حكم فى أمرها بما قاله .

(وقال للذى ظن أنه ناجٍ منهما) وهو الذى أول له رؤياه بأنه يسقى ربه خرا ،  
وتأويلها يدل على نجاته دلالة ظنية لا قطعية ، وقد يكون هذا بناء على وحي فيكون

الظن بمعنى اليقين وهو كثير في القرآن الكريم كما قال : « الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ » وقال : « إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةٍ » .

( اذكرني عند ربك ) أى اذكرني لدى سيدك الملك بما رأيت منى وما سمعت وعلمت من أمرى ، علّه ينصفنى ممن ظلمنى ويخرجنى من ضائقة السجن ، ومما هو جدير أن يذكره به دعوته إياهم إلى التوحيد وتأويله للرؤيا ، وإنبأهم بكل ما يأتيهم من طعام وشراب وغيرها قبل إتيانه وفتياه التى أفتى بها .

( فأنساه الشيطان ذكر ربه ) أى فأنسى الشيطان ذلك الساقى الناجى تذكر إخبار ربه أى أن يذكر يوسف للملك .

( فلبث في السجن بضع سنين ) منسيا مظلوما ، والبضع من ثلاث إلى تسع ، وأكثر ما يطلق على السبع وعليه الأكثرون في مدة سجن يوسف .

وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ  
وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣) قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ  
الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ (٤٤) وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ  
بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ  
سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي  
أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) قَالَ تَزَرَّعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا ،  
فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرَوْهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَا أَيُّهَا  
بَعْدَ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا



تُحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ  
يُغْصَرُونَ (٤٩)

### تفسير المفردات

السمان : واحدها سمين وسمينة ، والجفاف : واحدها مجفأ أى هزيلة ضعيفة ،  
والسنابل : واحدها سنبله وهى ما يكون فيها الحب ، واليابس من السنبيل : ما آن حصاده ،  
وعبرت الرؤيا وعبرتها ( بالتخفيف والتشديد ) فسرتها ببيان المعنى الحقيقى المراد من  
المعنى المثالى كمن يعبر النهر بالانتقال من ضفة إلى أخرى ، والأضعاث : واحدها ضِعْث  
وهو الحزمة من النبات ، والأحلام واحده حلم ( بضمهين وبالتسكين للتخفيف ) :  
ما يرى فى النوم ، وهو قد يكون واضح المعنى كالأفكار التى تكون فى اليقظة ، وقد  
يكون مهوَّشا مضطربا فهو يُشَبَّه بالتضاغيث كأنه مؤلف من حِزَم مختلفة من العيدان  
والحشائش التى لاتناسب بينها ، وادكر : تذكر ( أصله اذتكر ) ، والدأب : استمرار  
الشيء على حال واحدة يقولون هو دأب بفعل كذا إذا استمر فى فعله ، فذروه : أى  
أتركوه وادخروه . والشداد الصعاب التى تشتد على الناس . وتحصنون أى  
تُحْرِزُونَ وتدخرون للبذر ، وأغاثه : أعانه ونجاه ، وغوث الرجل : قال : واغوثاه ،  
واستغاث ربه : استنصره وسأله الغوث ، ويعصرون : أى مامن شأنه أن يُعَصَّرَ  
كالزيت من الزيتون والشيرج من السمسم ، والأشربة من القصب والتخيل والعنب .

### المعنى الجملى

رؤيا ملك مصر وتأويل يوسف عليه السلام لها

ذكر المؤرخون أن ملك مصر فى عهد يوسف كان من ملوك العرب الذين يسمون  
بالرعاة ( الهكسوس ) وأنه قد رأى رؤيا عجز السكينة والعلماء ورجال الدولة عن تأويلها ،

وقالوا أضغاث أحلام ، وكان من هذا أن لجئوا إلى يوسف في تأويل الرؤيا ، وبه تم اتصاله بالملك وتعيينه وزيراً له .

## الايضاح

( وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ) أى إني رأيت فيما يرى النائم رؤيا جليلة كأننى أراها الآن ، سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس وسبع بقرات عجاف فابتلعت العجاف السمان ، ورأيت سبع سنبلات خضر قد انعمد حبها ، وسبعا أخر يابسات قد استحصدت وأدركت ، فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها فجمع السكينة والعلماء وقال : ( يا أيها الملأ أفنتوني فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون ) أى عبّروها لى وبيّنوا حكما وما تشول إليه ، إن كنتم تعبرون الرؤى وتبينون المعنى الحقيقى المراد من المعنى التالى ، فيكون حالكم حال من يعبر النهر من ضفة إلى أخرى .

( قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ) أى قالوا هذه رؤيا من نوع أضغاث الأحلام : أى الأحلام المختلطة من خواطر وأخيلة يتصورها الدماغ فى النوم فلا تومىء إلى معنى معيّن مقصود ، وما نحن بأولى علم بتأويل مثل هذه الأحلام المضطربة ، بل نحن نعلم غيرها من الأحلام المفهومة المعقولة .

وقد يكون مرادهم نفى العلم بجنس الأحلام لأنها مما لا يعلم أو مما لا يكون له معنى تدل عليه تلك الصور المتخيلة فى النوم كما هو رأى الماديين الآن .

وقد كان حديث الملك فى رؤياه مع كهنته وعلمائه ورجال دولته مذكرا للذى نجا من الفتيتين بيوسف وحسن تعبيره للرؤى بعد أن مضى على ذلك ردح من الزمان كما يشير إلى هذا ما بعده :

( وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأسلون ) أى إن عجز الملأ كان فرصة سانحة للذى نجا من الفتيتين أن يخبر الملك بأن فى الحبس رجلا صالحا

علما كثير الطاعة - خبيرا بآويل الرؤى ، فإن أنت أذنت لى مضيت إليه وجئتكم بالجواب ( وكان ذلك الفتى تذكر بعد مدة من الزمن وصية يوسف له بأن يذكره عند سيده الملك فأنساه الشيطان ذلك ) فأرسلوه إليه فجاءه فاستفتاه فيما عجزوا عنه وقال :

( يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون ) أى يا يوسف البالغ غاية السكالم بصدقك فى أقوالك وأفعالك وآويل الأحاديث وتعبير الأحلام ، أفتنا فى ذلك المنام الذى رآه الملك ، وإنى لأرجو أن يحقق الله أملك بالخروج من السجن وانتفاع الملك وملئه بفضلك وعلمك ،

( قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما تأكلون ) أى قال يوسف للملك وملئه مبينا لهم ما يجب عليهم أن يعملوه لتلافى ماتدل عليه الرؤيا من الخطر على البلاد وأهلها قبل وقوع تأويلها ، من زراعة القمح سبع سنين متوالية بلا انقطاع ثم بادخار ما يحصد منه فى كل زرة فى سنابله على طريق تحفظه من السوس بتسرب الرطوبة إليه حتى يكون القمح لغذاء الناس والتبن للدواب حين الحاجة إليه ، إلا قليلا من ذلك تأكلونه فى كل سنة مع الاقتصاد والاكتفاء بما يسد الحاجة ويكفى دفع المخمصة ، وهذه السنون السبع هى تأويل البقرات السبع السمان . أما السنبلات الخضر فعلى حقيقةها فى كون كل سنبله تأويلا لزراع سنة .

( ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ماقدتم هن إلا قليلا مما تحصنون ) أى ثم يأتى من بعد ذلك سبع سنين كهن جذب وقحط ، يأكل أهلها كل ما ادخرتم فى تلك السنين لأجلهم ، إلا قليلا مما تخزنون وتدخرون للبذر ، ونسبة الأكل إلى السنين هو ما جرت به عادتهم فيقولون أكلت هذه السنة كل شىء ولم تبق لنا خفا ولا حافرا ولا سبدا ولا لبدا : أى لاشعرا ولا صوفا .

فهذا تأويل البقرات السبع العجاف وأكلهن للسبع السمان ، وللسنبلات اليابسات .

(ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون) أى ثم يعقبهم بعد تلك الشدائد عام فيه يغاث الناس : أى يغيثهم الله من تلك الشدة أتم إغاثة ويعينهم بجميع أنواع المعونة ، فتغل البلاد وتكثر المحصولات بجميع أنواعها ويعصرون ما من شأنه أن يعصر من العنب والقصب والزيتون والسمن ونحوها من الفواكه .

وخلاصة ذلك — إن العام يكون عام خصب وإقبال ، ويكون للناس فيه ما يبغيون من النعمة والإتراف ، والإنباء بهذا العام زائد على تأويل الرؤيا ولم يعرفه يوسف على التخصيص والتفصيل إلا بوحي من الله عز وجل .

وَقَالَ الْمَلِكُ اثْبُوتِي بِهِ ، فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النَّسُوءِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ، إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) قَالَ مَا خَطْبُكِ إِذْ رَأَوْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ؟ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ، قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ : الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَأَوْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَتَى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢)

طلب الملك ليوسف وتريثه في الإجابة

حتى يحقق حادثة النسوة

بعد أن رجع الرسول إلى الملك وملئه وأبلغهم ما قاله يوسف عليه السلام ، فهموا منه سعة علمه وحسن تدبيره لدى ذلك الخطب الجلل الذي سيجل بالبلاد ، فطالب الملك رؤيته ليتحقق بنفسه صدق ما فهمه من كلامه ، إذ ليس الخبر كالحبر وليس السماع كالمشاهدة ، وذلك هو الرأى والحزم .

## الإيضاح

( وقال الملك ائتوني به ) كى أستمع كلامه وأعرف درجة عقله وأعلم تفضيل رأيه .

( فلما جاءه الرسول ) وبلغه أمر الملك وطلب إليه إنفاذه .

( قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ) البال : هو الأمر

الذى يبحث عنه ويهتم به : أى ارجع إلى سيدك قبل شخوصى إليه ومثولى بين يديه ،  
وسله عن حال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ليعرف حقيقة أمره ، إذ لا أود أن آتية  
وأنا متهم بقضية عوقبت من أجلها بالسجن وقد طال مكثى فيه دون تعرف الحقيقة  
ولا البحث فى صميم التهمة .

( إن ربى بكيدهن عليم ) أى إنه تعالى هو العالم بخفياآت الأمور ، وهو الذى

صرف عنى كيدهن فلم يمسسنى منه سوء .

وقد دل هذا التريث والتأمل من يوسف عليه السلام عن إجابة طلب الملك له

حتى تحقق براءته على جملة أمور :

( ١ ) جميل صبره وحسن أناته ، ولا عجب فمثله ممن لقي الشدائد جدير به أن

يكون صبوراً حلماً ، ولا سيما ممن ورث النبوة كإبراهيم عن كابر ، وقد ورد فى الصحيحين

مرفوعاً « ولو لبثت فى السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى » ، وفى رواية أحمد

« لو كنت أنا لأسرت الإجابة وما ابتغيت العذر » .

( ٢ ) عزة نفسه وصون كرامته ، إذ لم يرض أن تكون التهمة بالباطل عالقة به ،

فطلب إظهار براءته وعفته عن أن يُزَنَّ بريئة أو تحوم حول اسمه شائبة سوء .

( ٣ ) إنه عَفَّ عن اتهام النسوة بالسوء والتصريح بالظن عليهن حتى يتحقق

الملك بنفسه حين ما يسألهن عن السبب فى تقطيع الأيدي ويعلم ذلك منهن حين الإجابة .

( ٤ ) إنه لم يذكر سيده معهن وهى السبب فى تلك الفتنة الشعواء وفاء لزوجها

ورحمة بها ، وإنما اتهمها أولاً دفاعاً عن نفسه حين وقف موقف التهمة لدى سيدها

وبعد أن طعنت فيه .

( قال ماخطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ) الخطب الشأن العظيم الذى يقع فيه التخطاطب إما لغرابته وإما لإنكاره ، ومنه قوله تعالى حكاية عن إبراهيم : « قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ » وقوم موسى : « فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ » أى إن الرسول بعد أن أبلغ الملك قول يوسف : إنه لا يخرج من السجن استجابة لدعوته حتى يحقق قصة النسوة - جمعهن وسألهن : ماخطبكن الذى حملكن على مراودته عن نفسه : هل كان عن ميل منه إليكن ، وهل رأيتن منه مواتاة واستجابة بعدها ، وماذا كان السبب فى إلقائه فى السجن مع المجرمين .

( قلن حاش لله ماعلما عليه من سوء ) أى معاذ الله . ماعلما عليه سوءا يشينه ويسوؤه لاقبلا ولا كثيرا .

( قالت امرأة العزيز : الآن حصحص الحق ) حصحص : ظهر بغد أن كان خفيا أى إن الحق فى هذه القضية كان فى رأى من بلغهم - موزع التبعة بيننا معشر النسوة وبين يوسف ، لكل مناحصة بقدر ماعرض فيها من شبهة ، والآن قد ظهر الحق فى جانب واحد لاختفاء فيه ، وهن قد شهدن بما علمن شهادة نفى ، وهأنذا أشهد على نفسى شهادة إيجاب .

( أنا راودته عن نفسه ) لأنه راودنى ، بل استعصم وأعرض عنى .

( وإنه لمن الصادقين ) فى قوله حين افتريت عليه : هى راودتنى عن نفسى ، والذى دعاها إلى هذا الاعتراف مكافأة يوسف على ما فعله من رعاية حقها وتعظيم جانبها وإخفاء أمرها حيث قال : ( مابال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ) ولم يعرض لشنائها .

وفى هذا الاعتراف شهادة مريجة من امرأة العزيز ببراءة يوسف من كل الذنوب ، وطهارته من كل العيوب .

( ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب ) أى ذلك الاعتراف منى بالحق له ، والشهادة بالصدق الذى علمته منه ، ليعلم أنى لم أخنه بالغيب عنه منذ سجن إلى الآن ، فلم أنل

من أمانته ، أو أطمعن فى شرفه وعفته ، بل صرحت لأولئك النسوة بأنى راودته عن نفسه فاستعصم ، وهأنذا أقر بهذا أمام الملك ورجال دولته وهو غائب عنا .  
( وأن الله لا يهدى كيد الخائنين ) أى لا ينفذه بل يبطله وتكون عاقبته الفضيحة والكمال ، ولقد كدنا له فصرف ربه عنه كيدنا ، وسجنناه فبرأه الله وفضح مكرنا ، حتى شهدنا على أنفسنا فى مثل هذا الحفل الرهيب والمقام المغيث ببراءته من كل العيوب ، وسلامته من كل سوء .

وعلى الجملة فالتحقيق أسفر عن أن يوسف كان مثل السكالم الإنسانى فى عفته ونزاهته لم يمسسه سوء من فتنة أولئك النسوة ، وأن امرأة العزيز أقرت فى خاتمة المطاف بذنبها فى مجلس الملك إيثارا للحق وإثباتا لبراءة يوسف عليه السلام .  
نسألك سبحانه الهداية والتوفيق ، وأن تسدد خطانا إلى أقوم طريق ، بملك وكرمك وجزيل معونتك ، إنك نعم المولى ونعم النصير .

وصل ربنا على محمد وآله ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .  
وقد كان الفراغ من مسودة هذا الجزء بمدينة حلوان من أرباض القاهرة لثمان بقين من صفر من سنة ثلاث وستين وثلثمائة وألف هجرية .





## فهرست

## أهم المباحث العامة التى فى هذا الجزء

الصفحة	المبحث
٥	كان عرش الله على الماء فى أثناء خلق العالم قبل تكوین السموات والأرض .
٦	الماء أصل جميع الأحياء .
٧	استعجال المشركين للعذاب
٨	الإنسان محروم من فضيلتى الصبر والشكر .
١١	كان الرسول صلى الله عليه وسلم يضيق صدره لعناد المشركين وجحودهم لدعوته .
١٢	دعواهم أن القرآن مفتى وليس بوحي من عند الله .
١٤	قصص القرآن والأغراض منه .
١٥	حكمة التحدى بعشر سور .
١٧	الدين يبيع التمتع بالطيبات ويبيع الزينة فى غير سرف ولا خيلاء .
٢٧	الإيمان لا يكون بالإكراه .
٢٩	الرسول لا يعلم الغيب .
٣٨	دعوة نوح لابنه إلى الإيمان .
٤١	لا يجوز الدعاء بما يخالف سنن الله فى الخلق .
٤٢	لا علاقة للصالح بالوراثة والنسب .
	من يغتر بنسبه ولا يعمل بما يرضى ربه فهو جاهل بكتابه .
٤٣	قصص القرآن من عالم الغيب .
٤٤	هل كان الطوفان عاما أو خاصا
٤٥	حادث الطوفان فى القرآن والتوراة والتاريخ القديم .
٤٦	عمر نوح عليه السلام .

الصفحة	المبحث
٥٦	آية صالح ناقته .
٥٧	الصيحة التى أهلكت بها ثمود .
	بشارة الملائكة لإبراهيم وامراته بإسحاق .
٥٩	مرور الملائكة بإبراهيم حين إهلاك قوم لوط .
	ولد إسحاق لإبراهيم وسنه مائة سنة وكانت سن امرأته تسعين .
٦٠	الفرق بين الروح ( بالضم ) والروح ( بالفتح ) .
٦١	مجادلة إبراهيم للملائكة فى سفر التكوين من التوراة .
٦٦	أمر لوط بالسرى ليلا .
٧٠	الإفساد تعطيل شامل لمصالح الدين والدنيا .
٧٧	تهديد قوم شعيب له بالرجم .
٧٨	آيات موسى التسع .
٨٥	الناس يوم القيامة فريقان .
٨٨	إنذار المشركين بحلول العذاب بهم كما حلّ بسالف الأمم .
٩١	تحكيم العقل البشرى فى الخوض فى ذات الله وصفاته تجاوز لحدوده .
	الاختلاف فى أمور القضاء والسياسة وأمور المعاش أمر طبيعى .
٩٢	أمر الرسول بالاستقامة .
٩٣	الاستعانة بالظلمة رضا بأعمالهم .
	يجب الأخذ على أيدي الظلمة وأئمة الجور .
٩٥	الصلاة أس العبادات المغذية للإيمان .
٩٦	السنن العامة فى إهلاك الأمم .
٩٧	العقول السليمة تكفى افهم ما فى دعوة الرسل من الخير .
	الله لا يهلك أمة اشركها ما دام أهلها مصلحين .

- الصفحة المبحث
- ٩٨ لو شاء الله لجعل الناس على دين واحد .
- ١٠٠ فى قصص الرسل مع أهمهم تثبيت لقواده صلى الله عليه وسلم وبيان لوجه الحق فى دعوته
- ١٠٥ أتباع الرسل هم الفقراء
- ١٠٦ يوسف الصديق مثل كامل فى عفقه وصبره .
- ١٠٧ مافى قصص يوسف من عبرة
- ١١٢ قصص يوسف أحسن القصص .
- ١١٣ قصص يوسف رؤياه على أبيه .
- ١١٤ نهى أبيه له عن إخبار إخوته بهذه الرؤيا .
- ١١٨ تأمر إخوة يوسف على الفتك به وتدير المكيدة له .
- ١١٩ خوف يعقوب على يوسف مع ذكر السبب فى ذلك .
- ١٢١ إلقاء يوسف فى الحب .
- ١٢٢ ادعائهم أن الذنب قد أكله ومجيئهم بدم كذب تصديقا لذلك
- ١٢٣ عشور السيارة عليه فى الحب وفرحهم به .
- ١٢٤ بيعه فى مصر بثمن بخس دراهم معدودة .
- ١٢٥ شراء رئيس وزراء مصر له وأمر زوجه بإكرامه
- ١٢٦ كان عزيز مصر عقيما وكان صادق الفراسة .
- ١٢٧ علم الله يوسف الحكم الصحيح فيما يعرض له من مشكلات الأمور .
- ١٢٨ مراودة امرأة العزيز له عن نفسها .
- ١٢٩ امتناعه عن إجابة طلبها .
- ١٣٠ رأى ابن جرير والفخر الرازى فى تفسير آية المراودة
- ١٣١ رأى الجمهور فى تفسيرها ثم تفنيد ذلك بالأدلة .
- ١٣٢ شكوى المرأة لزوجها من يوسف وتحيلها فى ذلك .
- ١٣٣ تحقيق زوجها للحادث وحكم قريبها ببراءة يوسف .

## المبحث

## الصفحة

- ١٣٤ الأمارات الدالة على صدق يوسف .
- ١٣٥ هل كان شاهد يوسف صليبا ؟ .
- ١٣٦ حديث النسوة فى المدينة ومكر امرأة العزيز بهن .
- ١٣٨ تعجب النسوة من حصول الحادث لأسباب .
- ١٣٩ تدبيرها الحكم للكيد بهن .
- ١٤٠ سلواها بما يكون معذرة لها فى ظنها .
- تهديدها إياه بالسجن إن لم يجيبها إلى ما تطلب .
- ١٤١ دعاؤه ربه أن يصرف عنه كيد النسوة .
- ١٤٢ استجابة ربه لدعائه .
- تصميمهم على سجنه مع ظهور براءته .
- ١٤٤ تعبيره الرؤى لمن فى السجن .
- ١٤٨ عظته المسجونين وطلبته منهم الإيمان بالله وحده
- ١٥٠ صادق الإيمان لا يذل إلا الله .
- ١٥١ تعبيره رؤيا ساقى الملك وخبازه .
- ١٥٢ رؤيا الملك فى المنام وطلبه تعبيرها .
- تأويل الكهنة لها .
- ١٥٣ تأويل يوسف لها .
- ١٥٦ طلب الملك ليوسف وتريثه فى الإجابة .
- ١٥٧ الأسباب التى حملته على التريث فى إجابة الطلب .
- ١٥٨ اعتراف المرأة ببراءة يوسف .
- ١٥٩ ما أسفر عنه التحقيق .